

الهوة

تأليف: مبادرة فراشة أكتوبر

الهوة

مبادرة فراشة أكتوبر



تدقيق

ثواب العسلي

سِدرة المفلس

تصميم

كوثر الخياط

الإهداء
إلى كلِّ مَنْ سَقَطَ فِي هُوَّةِ
يَوْمًا
وَلَمْ يَفْقِدْ إِنْسَانِيَّتَهُ...
إلى مَنْ اخْتَارَ الْخَيْرَ رَغْمَ
العناء،
وإلى كلِّ كاتب وكاتبة في
مبادرة فراشة أكتوبري،
استمري، فأنتِ الأفضل.

المُقَدِّمَة

ليس كلُّ سُقُوطٍ نِهَايَةً،
بعضُ السُّقُوطِ بَدَايَةُ اخْتِبَارٍ.
حِينَ يَجِدُ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ خَارِجَ مَا اعْتَادَهُ،
وَحِينَ تُنَزَعُ عَنْهُ الْأَسْمَاءُ، وَالطَّرِيقُ
الْمَالُوفَةُ،
لَا يَبْقَى لَهُ سِوَى خِيَارٍ وَاحِدٍ:
أَنْ يُوَاجِهَ نَفْسَهُ.
هَذِهِ الرِّوَايَةُ لَا تَحْكِي عَنْ غَابَةِ صَفْرَاءَ،
وَلَا عَنْ بَيْرٍ أَحْمَرَ فَحَسَبَ،
بَلْ عَنْ الْإِنْسَانِ حِينَ يُوَضَّعُ بَيْنَ الْخَيْرِ
وَالشَّرِّ،
وَيُمنَحُ حُرِّيَّةَ الْاِخْتِيَارِ...
ثُمَّ يُسَأَلُ عَنْ ثَمَنِهِ.

الباب الأول

الكتاب

فاطمة فتوح كوثر الخياط

بِسْدرة المفلِس ثواب العسلي



في وَسْطِ الغَابَةِ، كَانَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الأَصْدِقَاءِ
يُضْحَكُونَ بِصَوْتٍ عَالٍ،
ضِحْكَاتٌ صَافِيَةٌ تَعَكِّسُ سَعَادَةَ رِحْلَةِ جَامِعِيَّةٍ
بَعِيدَةٍ عَنِ ضَغْطِ الدِّرَاسَةِ.

كَانُوا فِي مُخَيِّمٍ مِيدَانِيٍّ يَدْرُسُونَ العُلُومَ الحَيِّةَ،
لَا شَيْءَ فِي المَكَانِ يُوْحِي بِالْخَطَرِ،
سِوَى أَشْجَارٍ عَالِيَةٍ تُرَاقِبُهُمْ بِصَمْتٍ.
فَجَاءَتْ، تَوَقَّفَ مَهَادٌ عَنِ الضَّحْكِ،
وَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وَعَيْنَاهُ تَبْرَقَانِ بِحِمَاسَةٍ غَرِيبَةٍ،
ثُمَّ قَالَ بِصَوْتٍ يَحْمَلُ الفُضُولَ أَكْثَرَ مِنَ الحَذَرِ:
— مَا رَأَيْكُمْ أَنْ نَكْتَشِفَ الغَابَةَ؟ سَمِعْتُ أَنَّ فِيهَا
مِغَارَةٌ جَمِيلَةٌ.

التفت إليه زَرَامٌ بِسُرْعَةٍ، وَابْتَسَامَةُ الحِمَاسِ تَرْتَسِمُ
عَلَى وَجْهِهِ:

— نَعَمْ، نَعَمْ، لِنَذْهَبْ!

ابْتَسَمَ نِيَالٌ وَقَالَ دُونَ تَرْدُدٍ:

— هَيَّا إِذَا.

بَدَأُوا بِالابْتِعَادِ عَنِ بَقِيَّةِ أَصْدِقَائِهِمْ،

خطواتهم خفيفة، وضجكاتهم ما زالت تتردد خلفهم،
لم يُبالوا بالمسافة التي تفصلهم عن المُخيم،
ولم يعلموا ما ينتظرهم في عمق الغابة.
توقف زرام فجأة وقال:

– انظروا... هناك ضوء، كأن شيئًا يلمع تحت
العشب.

اقتربوا بحذر، يُزيحون العشب بأيديهم،
والفضول يسبق الخوف في قلوبهم.
وما إن خطا نيال خطوةً أخرى،
حتى انفتح الفراغ تحت أقدامهم.
سقطوا!

ابتلعت هوة عميقة نيالاً وأصدقاءه،
لتقودهم إلى عالم غير مألوف،
إلى غابة يطغى عليها اللون الأصفر،
حيث يبدو كل شيء هادئًا، دافئًا...
لكنه مُراقبٌ بدقة.

تحسّس نِيال رأسه في أَلَمٍ وقال:

– أنتم بخير؟!

قال أثير:

– أظنُّ ذلك

قال زرام بعتاب:

– كلُّ هذا بسببِ فكرتك العظيمةِ يا مهادا!

أجابَه مهاد في غضب:

– وهل قمتُ بإجبار أيِّ منكم على هذا؟!

وما إن نهضا مستعدّين لجدالٍ لا ينتهي،

وقف بينهما نِيال وقال بصوتٍ ليس

بالضعيف:

– توقّفا حالاً، بدلَ أن يلومَ أحدنا الآخر،

علينا أن نجدَ حلًّا سريعًا لهذه المُصيبة!

قاطعَه أثير:

– لكن يا نِيال.. لا أظنُّ أننا تائهونَ في

الغابة وحسب، انظر حولك!

التفت نِيال والباقون، ليَرُوا المشهدَ كاملاً، إذ
تحيطُ بهم أشجارٌ عالية لها ألوانٌ خريفيةٌ هادئةٌ
تعكسُ لونًا أصفرَ بديع، وتغطي أزهارُ الأقحوانِ
الأرضَ من تحتهم لثضفي منظرًا دافئًا، غيرَ أنَّ
نورَ الشَّمسِ بدأ مُتسللاً بين الأغصانِ المُزدحمة،
والعصافيرُ لها ألوانٌ كثيرةٌ وغريبةٌ _ بدت من
عالمٍ آخر _ كلُّ شيءٍ كانَ رائعَ الجمالِ بطريقةٍ
مُربكة، إذ أنَّهم _ ورغمَ معرفتهم بهذه المنطقةِ
جيدًا _ بدت هذه الغابةُ غيرَ مألوفةٍ لهم أبدًا،
حملت ملامحهم مزيجًا واضحًا بين الإعجابِ
والقلق.

قال نِيال في زهول:

– لم أرَ مكانًا كهذا في حياتي كلَّها!

وافقه زرام وقد علا صوته بشدة:

– يا ويلي! أنحنُ في الجنة أم ماذا؟! سأعفو

عنك يا مهاذ إن كنا كذلك.

وقبل أن يُجيب مهاد بأيِّ كلمة، ظهرَ من خلف
الشُّجيراتِ القريبةِ رجلٌ نحيل، تكادُ ساقاهُ
تختفيان، يرتدي عباءةً تُخفي مُعظمَ جسدهِ
وملامحه إلا أذناه الطَّويلتان وساقاهُ الرِّفيعتان
الصِّفراوتان، وكأنَّه حيوانٌ على هيئةِ بشريَّة!
قال لهم في ترحاب:
- لسثم في الجنَّةِ أيُّها الشُّباب، لا يزالُ أمامكم
حياةٌ طويلة!

صاح زرام في خوف:
- أثير! من هذا؟! وكيف يتحدَّثُ ويمشي؟!
أجابَه أثير بهمسٍ:
- لسثُ أعلم، لمَ قد تسألني أنا؟!
قال زرام وكأنَّه يُثني عليه:
- لأنَّك الأذكى بيننا، هذا واضح! لعلَّك قد قرأتَ
عن مخلوقٍ غريبٍ كهذا في كتبك الكثيرة.
قاطعها ذاك المخلوق:

– ستعلمون بكل شيء إن تبعتموني إلى
المعلم.

قالوا في استغراب!

– المعلم؟!

أجاب المخلوق:

نعم، إنه المعلم آسر، أشهر معلم في عالمنا

ثم مشى إلى أعماق الغابة، وتبعه نيال مباشرة،

حتى أمسك أثير بيده وقال هامسًا:

– أيها الأحمق! كيف تثق به هكذا؟!

ليضيف زرام بخوف:

– مظهره مُرعب! لا تقل لي أنك تراه طيبًا –

كما ترى كل الناس – يبدو خبيثًا!

وافقهما مهادٌ أيضًا، ليقف نيال حائرًا ويقول:

– لكننا لا نملك خيارًا آخر!

ليجيبه أثير:

– يمكننا العودة، أظن أننا ما نزال قريبين.

نظرَ المخلوقَ الغريبَ نظرةً طويلةً خلفه، ثمَّ
أطلقَ تنهيدةً وقال هامسًا:

– ليس لديَّ خيارٌ آخر!

وفقشَ بإصبعه بسرعة؛ ليفقدَ الأصدقاءَ
قدرتهم على التحكّم في أجسادهم، ثمَّ
يرتفعون عن الأرضِ ببطءٍ في اتجاهه،
ويطيرَ هو الآخر في هدوء.

قال محدّثًا:

– لا تحاولوا المقاومة، قد تتفتّت أجسادكم
الضعيفة بفعلِ احتكاكِها مع مجالِ طاقتي.
ارتسمتْ على وجوههم ملامحُ الحذر.
وصاحَ زرام بزُعب:

– نُقسمُ لك أنّنا أتينا مُصادفة، لا تؤذنا
أرجوك!

صاحَ المخلوقُ أيضًا في غضبٍ لأوّل مرّة:

– ومنَ قال أنّي سأفعل؟! اصمتوا أرجوكم
قبل أن أغضبَ أكثر، فالطريقُ إلى المُعلّمِ
ليستْ طويلة، نكادُ نصل.

التزمَ كلُّ منهم الصَّمت، وتبادلوا نظراتٍ حائرة،
كانَ الأمرُ غريبًا ومُرعبًا، إنَّهم يطيطرون وفي غابِةٍ
لا تبدو من أرضهم، وأمامهم هذا المخلوقُ
العجيب! هل كلُّ هذا حلمٌ أم ماذا؟!
في تلك اللّحظَاتِ الَّتِي سبقت الوصول إلى
المعلّم، كانت الأفكارُ تتزاحمُ في رؤوسِ
الأصدقاء.

نيال الذي كان يحاولُ الحفاظَ على عقله خاليًا،
لم يستطع منعَ نفسه من التّفكيرِ في العواقبِ
المحتملة لثقتِهِ السّريعةِ بهذا المخلوق الغريب.
أثير العقلاني بينهم، كان يحلّل كلَّ كلمةٍ وحركةٍ
للمخلوقِ محاولاً اكتشاف نواياهُ الحقيقيّة. أمّا
زرام الذي كان الخوفُ قد شلَّ تفكيره، فكانَ
يتمتّم بتسبيحاتٍ وصلواتٍ خافتة، راجياً ربّه
أن يستيقظَ من هذا الكابوس. ومن ناحيةٍ
أخرى، كان مهاد يشعُرُ بالذنبِ والنّدم، لأنّما
نفسهُ بأنّه السّبب في هذا المأزق. الصّمت الذي
خيّم على الأصدقاءِ

كان أثقل من أي وقت مضى، صمت لم
يقطعه سوى صوت أجنحة المخلوق الغريب،
وهمسات الريح التي تلوح بين الأشجار
الصفراء. كل منهم كان يعلم أن مصيرهم معلق
بخيط رفيع، وأن اللحظات القادمة قد تحدّد
مستقبلهم إلى الأبد.

حطوا بعد رحلتهم مع ذلك المخلوق على
ضفاف نهر تحمل مياهه اللون الأصفر
الخريفي، يتوقفوا نبال وأثير مدهوشين من
ذلك المنظر، بينما زرام كان ينظر إلى السماء
الذي يكسوها لون الأصفر الداكن وسرب من
الطيور الغريبة التي تنهق عند كل غيمة، قاطع
هذا الصمت صوت أشبه بأزيز باب مهترئ،
الصوت: أهلاً بالبشريين،
فالتفتوا إليه جميعاً ليشاهدوا رجلاً نحيلاً،
جسد يلبس عباءة بيضاء يحاول أن يخفي بها
عيوب جسده ويفظي رأسه

بوشاح أبيض، تنفر من جانبيه تلك الأذان
الأشبه للحيوانات،

ويلبس بيده خاتماً أصفر اللون يحمل رمز ذلك
الطائر الذي شاهده رازم في السماء، باغته أثير
بسؤال: وأنت من تكون أيها العجوز

العجوز: أنا أدعى هاوستك، وأكون المعلم هنا.
رازم بخوف يتجلى في صوته: أين؟

أجابه المعلم وهو ينظر إلى النهر بنظرة
جسورة: أنتم هنا في مدينة الهوة.

نيال: وكيف نخرج منها، نحن أتينا إلى هنا عن
طريق الغلط وعلينا المغادرة بأسرع وقت.

أجابه المعلم: لن يغادر أحداً من هنا قبل موعد
الحرب.

صمت الثلاثة بحيرة كبيرة

فأكمل المعلم: ستقام هنا حرباً بعد ثلاثة أشهر

من تاريخ اليوم ضد مدينة أرتسم ونحتاج

قوتكم للانتصار.

أجابَ أسير: نحن لا نملك أيّ قوّة ولا نريد المشاركة بأيّة حرب.
المعلّم: منذ وصولكم إلى مدينة هواة تحرّرت قوّة داخلية بكم، والحربُ هي الطّريقة الوحيدة لعودتكم إلى عالمكم .

نيال: نحن لا نريد المشاركة بالحرب.
المعلّم بنبرة مستهزئة: نحن لا نجبرُ أحداً على الخوض في هذه الحرب.
صمتَ الثلاثة لبرهةٍ من زمنٍ ثمّ قال أثير بعد تفكير: هل تمنحنا الوقت لكي نفكر بالأمر.

فأجابَ المعلّم وهو يهئمُّ بالرحيلِ نعم، ولكن اعلموا أنّ الصّوت لا يستطيع أن يحملَ اللسانَ مهما بلغت قسوة الحياة ثمّ اختفى بين الأشجارِ الملتفة.

الباب الثاني

الكتاب

مرام النهر

سارة جواد

شام كيوان

تغريد الهويدي

عندما اختفى "أسر" بين الأشجار، شعر
الأصدقاء بأنهم دخلوا مرحلة جديدة في
رحلتهم، مرحلة لا يمكنهم التراجع عنها. كان
الصمت هو الصوت الوحيد الذي يحيط بهم،
صمت ثقيل يحمل بداخله أسئلة لا إجابة لها.
نظر نبال إلى أصدقائه ثم قال بصوت
مبحوح من القلق: لا أدري إن كنا قادرين على
خوض هذه الحرب، لكنني لا أريد أن نبقى
هنا للأبد.

رد أثير وهو ينظر إلى الأفق البعيد: نحن لا
نعرف هذا المكان جيداً، ولا نعرف مدينة
"أرتسم"، كيف يمكننا أن نشارك في حرب
بين مدينتين لا نعلم شيئاً عنهما؟
زرام الذي كان صامتاً طوال الوقت، بدأ
يتمتم بهدوء: لا أصدق أننا نعيش في كل
هذا. لا أريد أن أكون جزءاً من أي حرب، ما
الذي سيحدث لو رفضنا؟ ماذا لو حاولنا
الهرب؟

مهاده الذي كانت عيناه شاحبتين من الصدمة،
تنهد ثم قال: الهروب قد يكون مستحيلاً هنا،
ولا أظن أنه لدينا خياراً سوى المشاركة في
هذه الحرب إن أردنا العودة إلى عالمنا، يجب
أن نكتشف كيف يمكننا البقاء على قيد الحياة
في هذه المدينة أولاً.

التفتوا جميعاً إلى المدينة التي كانت تظهر
لهم في الأفق، حيث كانت الجدران المتهدمة
والمباني المهجورة تثير شعوراً بالغموض
والخوف، كيف يمكن لهذه المدينة أن تكون
نقطة الفصل بين عالمين؟

دخل الأصدقاء المدينة بحذر، وكانت شوارعها
متشابكة ومظلمة، حتى أن الضوء الخافت
الذي يتسلل من بين الجدران كان يكاد لا
يكفي لرؤية الطريق أمامهم. الأصوات
الوحيدة التي يسمعونها هي أصوات أقدامهم
على الأرض الصلبة، والريخ التي تعصف من
بين الأزقة.

كان الهواء هنا مختلفاً، مشبعاً بشيء من الكآبة، كما لو أنّ هذه المدينة كانت قد شهدت مئات الحروب من قبل، الشوارع كانت مليئة بالمباني التي تشبه الأطلال، بعضها كان متهدّماً، وبعضها الآخر يبدو أنّه قد ترك مهجوره فجأة، كانت هناك شعارات غريبة مكتوبة على الجدران بلغة لا يفهمها الأصدقاء، ومخلوقات غريبة تتنقل في الزوايا، تراقبهم بنظراتٍ مشبوهة.

قال مهاد وهو يلتفت إلى اليمين واليسار: هذا المكان ليس كما تخيلته، هناك شيئاً غريباً في هذا، شيء لا يمكن تفسيره.

قال أثير بوجه عابس: ربّما هو مجرد تأثير "الهوة"، ولكن علينا أن نكون حذرين، لا يمكننا أن نثق بأي شخص هنا.

وبينما كانوا يسيرون في المدينة، وصلوا إلى ساحة كبيرة حيث كانت هناك مجموعة من الأشخاص يبدو أنّهم في حالة استعداد، هؤلاء الناس كانوا يرتدون دروعاً غير مألوفة، ويحملون أسلحة غريبة الشكل، وهي تحمل لمساتٍ من سحر غامض.

أقبل عليهم أحدهم وقال بصوتٍ جادٍ: أنتم القادمون من "الهوة"، أليس كذلك؟ نحن ننتظركم.

كان هذا شخصٌ ذا ملامح قاسية، وعينه مليئتان بالحذر، من طريقة حديثه كانوا يعرفون أنه على علمٍ بما يجري حولهم لكنهم لم يردوا عليه فوراً.

قال زرام وهو يقتربُ بخطواتٍ مترددة: ماذا تريدون منا؟ هل نحنُ مجبرونَ على القتال؟ أجاب الرجل بتأملٍ: في هذه المدينة لا توجد إجابات واضحة، كل شيء يتوقف على كيفية تصرفكم في الأيام القادمة.

نظرت نبال إلى الرجل وقالت بنبرة حاسمة: نحن هنا لأننا لا نملك خياراً آخر، ولكننا بحاجة إلى معرفة ما الذي يجري هنا بالضبط، كيف يمكننا الخروج من هذا المكان؟ هل هناك مخرج؟

قال الرّجل: المخرج الوحيد هو القتال كما أخبركم
"هاوستك"، لا يمكنكم العودة إلى عالمكم إلا إذا
انتصرتهم في الحرب، أنتم هنا للسبب ذاته مثل
الآخرين.

قال أثير بنبرة قاطعة: سنفكر في هذا، لكن لا أحد
سيجبرنا على القتال ضد إرادتنا، أريد أن أعرف
تفاصيل أكثر.

ردّ الرّجل وهو يتنهد وكأنا يكره ما سيقوله: أنتم
في حربٍ لا تستطيعون الهروب منها، لكن لديكم
وقتًا لتفهموا المزيد. هناك آخرون هنا يمكنهم
مساعدتكم، ولكن لا تستهينوا بما ينتظركم.
وقبل أن يتمكّنوا من طرح مزيداً من الأسئلة،
اختفى الرّجل في الزّحام تاركاً إياهم في ساحةٍ
مظلمة وأفكاراً مشوشة.

وبعد مرور عدّة أيام، بدأ الأصدقاء يتعرّفون أكثر
على تفاصيل المدينة وأسرارها، كانوا يجتمعون
مع بعض السّكان المحليين الذين كانوا مستعدّين
لمساعدتهم،

على الرغم من أن هؤلاء الناس كانوا يحملون
ملايح من العزلة والشكوك.
أخذهم أحد هؤلاء الأشخاص إلى قاعة كبيرة،
حيث كانوا يلتقون مع قادة المدينة، كان هناك عدة
أشخاص يجلسون على منصة، يرتدون ملابساً
رسمية تبدو ثقيلة، بينما كانت الغرفة مليئةً
بالجنود المجهزين بأسلحة غريبة.
قال أحد القادة وهو يراقب الأصدقاء عن كثب:
أنتم هنا لأنكم جزءاً من مصيرنا، الآن لا يمكنكم
التراجع إذا اخترتم ألا تشاركوا في الحرب،
ستكونون عبئاً علينا.
قال نيال بحزم: لن نكون عبئاً، لكننا بحاجة أن
نفهم لماذا نحن هنا.
أجاب القائد ببساطة: نحن في حرب مع مدينة
أرتسم، الأعداء يقتربون وأنتم ستجدون في
أنفسكم ما يمكننا أن نستخدمه في هذه المعركة.
لقد تم تحرير طاقاتكم هنا، أنتم لستم مجرد بشر
عاديين بعد الآن.

كان الوقتُ قد حانَ لتدريبِ الأصدقاءِ على القتالِ،
لم يكن الأمرُ كما توقَّعوا، لم يكن التَّدريبُ يعتمدُ
فقط على الأسلحةِ الثَّقيلِيةِ، بل على طاقاتِ
غريبةِ نَمَت داخلَ أجسادِهِم.

قال مهاد وهو يحاولُ التَّركيزَ: ماذا يعني أن لدينا
طاقاتٍ؟ كيف يُمكننا استخدامها؟
أجابَ أحدَ المدرِّبينَ: ستكتشفونَ ذلك بأنفسِكُم،
تركيزِكُم وحالتِكُم الذَّهنيَّةُ هي ما سيحدِّد
قدراتِكُم.

حاولَ الأصدقاءُ التَّدريبَ على القتالِ والثَّكتيكِ،
ولكنَّ الأمورَ كانت تتطوَّرُ بشكلٍ غريبٍ. نِيال كان
يشعُرُ بقَدَرٍ غيرِ مسبوقٍ من القوَّةِ، لكن كان هناك
شعوراً غيرَ مريحٍ في داخله، بينما كان أثير يشكُّ
في جدوى هذه الطَّاقاتِ، كان زرام يظَلُّ خائفاً من
كلِّ شيءٍ، بما في ذلك قدراتهم الجديدة.

وبينما كانوا يتدرَّبونَ، دخل شخصٌ غريبٌ إلى
المكانِ كان يرتدي ثوباً أسود، ويشعُّ من حوله هالة
من الظلالِ، نظرَ إلى الأصدقاءِ وقال بصوتٍ
هامسٍ: لقد حانَ وقتُ الاختبارِ.

تجمّد المكانُ لحظةً دخوله، كأنّ الهواءَ نفسه
انكمشَ خوفًا. توقّف المدربون عن الحركة،
وانخفضت همسات الجنود حتى صارت همسًا
غير مسموع، ذلك الرّجل الأسود لم يكن مجرد
شخصٍ آخر، حضوره كان ثقلاً يُشعر من يراه
بأنّ شيئاً حاسماً على وشك الحدوث.
تقدّم خطوةً واحدةً، فامتدّت ظلاله على الأرض
بطريقةٍ غير طبيعيّة، كأنّها تتحرّك بإرادتها
الخاصّة، حدّق في الأصدقاءِ واحدًا تلو الآخر،
وعيناه الداكنتان بدتا كهراّتين تعكسان
مخاوفهم الدّفينّة.

قال بصوتٍ منخفض، لكنّه اخترق عقولهم
بوضوح: الاختبارُ ليس قتالًا، بل كشف.
تبادل الأصدقاء نظراتٍ متوترة، شعرَ نبال بأنّ
صدره يضيق وكأنّ نبض قلبه لم يعد منتظمًا،
أمّا أثير فحاول أن يبدو ثابتًا لكنّ عقله كان
يعجّ بالأسئلة، زرام تراجعَ خطوةً إلى الخلف
دون أن يشعر، بينما شدّ مهاد قبضته محاولًا
السيطرة على ارتجاف يده

سأل مهاد أخيراً: كَشَفْ ماذا؟

ابتسم الرّجلُ ابتسامَةً باهتةً لا تحملُ أيّة

طمأنينة: كَشَفْ حقيقتكم وما إن كنتم

صالحينَ للبقاء.

رفع يده ببطءٍ، فانطفأت المشاعلُ المعلقة

على الجدرانِ دفعةً واحدةً، وغرقت القاعةُ

في ظلامٍ دامسٍ، لم يبقَ سوى نوراً خافتاً

ينبعثُ من الأرضِ تحتَ أقدامِهِم، يرسمُ دوائرَ

غير مكتملة، تتغيّرُ أشكالها باستمرار.

قال الرّجلُ: كلُّ واحدٍ منكم سيرى ما يحاولُ

الهربَ منه، مَنْ يفشلُ لن يكملَ الطّريقَ.

شعر نبال فجأةً بأنه لم يعد في القاعة وجدَ

نفسه واقفاً وسط ساحةٍ معركةٍ مهجورةً،

تتناثرُ فيها بقايا أسلحةٍ ورايات ممزّقة، سمعَ

صرخاتٍ بعيدةً، ثم رأى نفسه واقفاً وحده،

قويّاً، لكن الجميع ينظرونَ إليه بخوفٍ، أدركَ

حينها أن قوّةه لم تكنُ نعمةً فقط، بل عبئاً قد

يجعله وحيداً.

أما أثير، فقد وجد نفسه في مدينة تشبه
عالمهم القديم، لكنها خالية من البشر، كل
الأبواب مغلقة، وكل الطرق تؤدي إلى فراغ،
فهم أن شكه الدائم وحذره المفرط قد يقودانه
إلى عزلة لا نهاية لها.

زرام كان الاختبار أقسى عليه؛ رأى نفسه
يركض بلا توقّف، يهرب من معركة لم تبدأ بعد،
كلما التفت خلفه لم يجد عدوّاً، يجد خوفه
يطارده سقط على ركبتيه، مدركاً أن الهروب لن
ينقذه.

من جهة مهاد، رأى نفسه يحاول حماية الجميع،
لكن كلما أنقذ أحدهم، سقط آخر، أدرك أن
مسؤوليته المفرطة قد تدمره إن لم يتعلم أن
يقبل بالعجز أحياناً.

وفجأة، عاد الضوء وعادت القاعة كما كانت،
سقط الأصدقاء على الأرض يلهثون، وكانهم
عادوا من رحلة طويلة داخل أرواحهم.
نظر الرجل إليهم مطوّلاً ثم قال: الآن فقد بدأت
رحلتكم الحقيقية.

تقدّم أحدُ القادةِ بخطواتِ حذرةٍ وسأل: هل

اجتازوا الاختبار؟

أجابَ الرَّجُلُ الأسود وهو يستدير مبتعداً: اجتازوه،

لكنَّ الحربَ ستُظهر من منهم سينجو.

ومع اختفائه بين الظلال، أدرك الأصدقاء أن

المدينة لم تعد مجرد محطة عابرة، وأن ما

ينتظرهم لن يكون معركةً بين مدينتين فقط، بل

صراعاً مع أنفسهم، ومع القوة التي بدأت تستيقظ

في داخلهم.

سادَ صمتٌ ثقيلٌ بعد رحيله، كأنَّ القاعةَ تحتفظُ

بأنفاسها الأخيرة.

نهض نِيالٌ أولاً، وفي عينيه وميضٌ جديد لا يشبه

الخوف الذي دخله.

مسح أثيرُ العرق عن جبينه، وأدرك أن الشكَّ لن

يكونَ بعد اليوم مُلزاماً له.

زرام وقف متردداً، لكنّه هذه المرّة لم يلتفت خلفه.

أما مهاد فتنفّس بعمقٍ، مستعداً لتعلم معنى

المشاركة لا الحمل وحده

من بعيد، دوت أبواب المدينة إيداناً بمرحلة جديدة.
كانت الجدرانُ نفسَها تبدو كأنها تراقبهم بصمتٍ
واعٍ.

خطوا معاً خارجَ القاعةِ، لا كأصدقاءٍ فقط، بل
كحملةٍ مصائرٍ متشابكةٍ.

لم يعودوا كما دخلوا، فقد ترك كل واحدٍ جزءاً من
ضعفه خلفه.

وفي قلبِ المدينةِ، بدأت قصةٌ أكبرُ تُكتبُ
بخطواتهم الأولى،

ولكن أترأه سيستمزُّ القلبُ بالتأقلمِ رغم إيعازِ

الخوفِ الذي انكمش والشك الذي تضائل؟

أستكونُ الحربُ مع بشرٍ عاديين أو مخلوقاتٍ ذا

قوى أو شياطين؟

بعد عدّة أيام...

يجلسُ الأصدقاءُ وكأنَّ الهمَّ يتجسّسُ على قلوبهم،

لكنّ الواقعُ قد طغى على مآثر الماضي، الآن لا وقت

للهزيمة، فالسقوط يعني الموت، وهم سيعودون لا

لأجل أصدقائهم فقط، بل ليعودوا إلى صفحةٍ

الحقيقة التي ستزيّن ببطولةٍ لم تُكتب بعد.

فجأةً، طائرٌ عنقائٍ فوق المدينةِ الحجريّةِ، يصرخُ مع
السنةِ لهبٍ تتصاعدُ مع الهواءِ، يحطُّ على صخرةٍ
قربَ نارٍ مشتعلةٍ في المنتصفِ، يضعُ رسالةً مع آثارِ
رمادٍ أسودٍ، يختفي الطائرُ وكأنّه لم يكن، فقط
الرسالةُ، قد كُتِبَ فيها : رايةُ المرءِ عزيمة، إذا
سقطت تهاوت الرّوحُ خلفَ غياهبِ الهزيمة، إذا
أردتَ أن تعودَ للبدايةِ، دع ناركُ تسطع يا مهاد، احرق
الورقةَ واقراء تعويذة العودة.

نيال: ماذا يعني ذلك؟

زرام: ما هذه التّعويذة، ولمَ مهاد؟

مهاد: تعويذة قرأتها في كتابٍ قديم.

ولكن كيف سأخرجُ النّارَ؟

بدأ يفكرُ في ذلك...

التزمَ أثير الصّمت، يترجمُ في عقله خبايا تلك

الرسالة، يفكرُ في حيلةٍ تقوده إلى النّار.

الغضب هي شعله النّار الأصيلة، إذا سأفعلها، تمتم

في نفسه، ثم هبّ واقفاً يقنعُ الجميع بأن مهاد هو

السبب الحقيقي لهذه

المشكلة، يرمقه بنظراتٍ مسمومة ويترجم كلمات
لها وقعٌ أليم على قلبٍ صديقه.
غضب مهاد لهذه الطريقة، و فجأةً، هبت شعله نارٍ
من يديه، سقط متفاجئاً...
أثير: لقد نجحت الخطة، نارك ستشعل مع مشاعرك
يا صديقي، لكن انتبه من النار أن تحرقك يوماً.
احترقت الرسالة وعادوا إلى نقطة البداية.
الغابة الصفراء، يقفون بين الأشجار، ينتظرون الزمن
أن يرسل لهم إشارة تقودهم إلى الخطوة التالية،
ظهر من بين الأشجار هاوستك.
هاوستك: لقد انتظرتكم طويلاً، إذا قررتم أن
تخوضوا الحرب القادمة.
نيال: لم نقدر بل فرض علينا.
هاوستك: لا يهم، الآن وقت الحقيقة.
الحقيقة: منذ زمن بعيد كانت هذه المدينة أرضاً
خضراءً مزدهرة، تعيش الكائنات مع قلوب طيبة
وخير وفير.

وفي يومٍ من أيام الشتاء، غزت الشياطين هذه الأرض، واستقرت في ركن من المدينة الكبيرة، قتلت الكثير وأزهقت الكثير من الأرواح، إلى أن قتلت روح الخير، وحبست روحه في الجبل الكبير ومنذ ذلك اليوم طغى اللون الأصفر على الخضار وسادت الأطلال مكان العمار، والآن حان وقت المعركة ضد الشياطين.

ساد صمتٌ ثقيلٌ بعد كلمات هاوستك، كأن الغابة الصفراء نفسها توقفت عن التنفس، كانت الأشجار تحدق بهم، أوراقها الذابلة تهمس بأسرارٍ قديمة، وكأن الأرض تعرف ما سيُقال قبل أن يُقال.

تقدم هاوستك خطوةً، وعرز عصاه في التراب فارتجت الأرض ارتجافاً خفيفاً، وقال بصوتٍ يحمل ثقل القرون: الشياطين لم تنتصر بالقوة وحدها بل بالخوف، حين سقطت روح الخير لم تُقتل بل نُسيت،

والتسيانُ هو أفضعُ الهزائم.

نظر نِيال إلى الجبلِ البعيد، ذاك الذي كان يعلو
كظلَّ أسودٍ في الأفق، وقال بصوتٍ مشدود:
وإذا كانت روحُ الخيرِ محبوسةً هناك، لماذا
نحن؟

ابتسمَ هاوستك ابتسامةً غامضةً: لأنكم لسئتم
من هذا العالم، قلوبكم لم تتلوث بعد بقوانين
هذه الأرض، ونازكم لم تُطفأ بالخوفِ الطويل،
كل واحدٍ منكم يحملُ شرارةً مختلفة، وإن
اجتمعت قد تعيدُ التوازن.

شدَّ زرام عباةً حوله، وقال بترددٍ أقل من
السابق: وهل سننجو؟

أجابَ هاوستك دونَ أن ينظرَ إليه: التَّجاة
ليست وعداً، لكنّها احتمال.

تقدّم مهادُ خطوةً إلى الأمام، وكانت آثارُ النارِ لا
تزال ترتجفُ في راحتيه وقال: إن كانت
الشياطينُ هي العدو فلماذا أشعرُ أن المعركة
تبدأ من داخلنا؟

التفت إليه هاوستك، وعيناه تلمعان بإعجابٍ
صامت: لأنّ هذا صحيح، الشياطين لا تُهزم
بالسيوفِ أولاً، بل حين تفشل في جعلك تكره
نفسك، أو تشكّ بقيمتك، أو تنسى لماذا تقاتل،
في تلك اللحظة، دوى صوتٌ عميق من جهة
الجبل، كهديرٍ مكتومٍ يشقّ الهواء، ارتفعت
السّماءُ قليلاً، وانشقت الغيوم عن لونٍ قاتم،
وكأنّ الليل يحاول أن يسبق أوانه.
قال أثير وهو يراقب الأفق بعينٍ حادة: لقد
شعروا بنا.

أوما هاوستك ببطء: نعم، ومنذ هذه اللحظة،
لم تعودوا ضيوفاً في هذه الأرض، بل أهدافاً،
مدّ يده فانفتحت دائرة ضوءٍ تحت أقدامهم،
تشبه تلك التي رأوها في الاختبار، لكنّها كانت
أكثر ثباتاً، وأكثر صدقاً، هذه ليست عودة، قال:
بل عبور، إن دخلتموها فلن تعودوا كما كنتم،
تبادل الأصدقاء نظراتٍ قصيرة، لم تكن بحاجة
إلى كلمات،

الخوف كان حاضرًا، نعم، لكن خلفه كان هناك
شيءٌ آخر... إصرارٌ لم يولد من الشجاعة بل من
الرّفص، رِفْص السَّقوط، رِفْص أن يكونوا أدواتٍ
في قصةٍ لم يختاروها.
خطا نِيال أوّلًا داخل الصّوء، تبعه أثير دون تردّد.
زرام توقّف لحظة ثمّ تنفّس بعمقٍ ودخل.
أمّا مهاد، فحين وضع قدمه الأخيرة، اشتعلت
النّار في عينيه لا في يديه.
أغلقت الدّائرة خلفهم، وعادت الغابة إلى سكوتها،
كأنّ شيئًا لم يحدث.
لكن في أعماقِ الجبل الكبير،
فتحت الشّياطينُ أعينها، وشعرت روحُ الخيرِ
بأنّ أحداً تذكرها أخيرًا، وبهذا بدأت الحربُ قبل
أن تُعلن.

الباب الثالث

الكتاب

عائشة السيد

مروة عبدالله

لمار أيهم حميدي

هديل علي حبق



لم يشعروا بالعبور، لم يكن هناك سقوط ولا ألم،
فقط ذلك الإحساس الخادع.. كأنّ العالم قد
تبدّل وهم ثابتون.

حين انطفأ الضوء، وجدوا أنفسهم في مكانٍ لم
تطأه أقدامهم من قبل.

سهلٌ واسع يمتدّ بلا نهاية، أرضه متشقّقة كأنّها
تحمل آثار صراعاتٍ قديمة، والهواء ثقيلٌ، لا
يُستنشق بل يُحتمل.

في السّماء، كانت الغيوم تتحرّك بعكس اتجاه
الريّح، وكأنّ قوانين هذا العالم لا تعباً بما
يعرفونه.

قال زرام بصوتٍ خافت:

– هذا... ليس الجبل.

أجاب أثير وهو يحدّق في الأفق:

– لا، لكننا أقرب ممّا نظن.

في منتصف السّهل، ارتفعت أعمدةٌ حجريّةٌ
سوداء، منقوشةٌ برموزٍ تشبه تلك التي رأوها
على جدران المدينة،

لكنّها هنا كانت تنبض بخفوت، كأنّها قلوبٌ مدفونة،
وكلّما اقتربوا، شعروا بشيءٍ يتحرّك داخلهم، ليس
خوفًا هذه المرّة، بل استدعاءً غامضًا.
توقف نِيال فجأة وقال:

– هل تسمعون ذلك؟

لم يكن صوتًا واضحًا، بل صدى أفكارٍ لا تخصّهم،
همساتٌ متداخلة، غضبٌ، ندم، صلواتٌ لم تُستجب.
أمّا مهاد، فكان يشعر بأنّ النّار في داخله لا تهدأ،
لكنّها لم تكن جامحة كما قبل، بل... واعية.

– هذا المكان يتغذّى علينا، قال بهدوء لم يشبهه من
قبل.

وفجأة، تشققت الأرض أمامهم، وخرج منها ظلٌّ
طويلٌ بلا ملامح، يتشكّل ثمّ يتلاشى، وكأنّه يختبر
قدرتهم على الرّؤية قبل القتال، لم يهاجم، لم يتكلّم،
فقط وقف هناك... يراقب.

قال أثير:

– كشاف!

أوما نِيال:

– إذا نحن في منطقة مراقبة.
وقبل أن يتخذوا خطوةً أخرى، انطفأت الأعمدة
الحجرية دفعةً واحدة، وغرقت الأرض في ظلامٍ
لم يكن أسود، بل أصفرَ باهت... لون الأرض
المنسية.

وفي ذلك الصمت، سُمع صوتٌ واحد، ليس من
حولهم، بل من داخلهم جميعًا:
«إن تقدّمتم، ستخسرون شيئًا لن يعود.
وإن تراجعتم، ستخسرون أنفسكم.»
نظروا إلى بعضهم، لا أحد سأل من المتحدّث، ولا
أحد سأل لماذا.
لأنّهم أدركوا الحقيقة الأولى للحرب، الطّريق لن
يطلب منهم القتال فقط... بل الاختيار.

وعلى بُعدٍ غير مرئي، كانت الشياطين ترسم
خطّتها الأولى، وكان الجبل الكبير ينتظر من يجرؤ
على الاقتراب من قلبه
لم يكن الصّوت تحذيرًا فقط، كان عهدًا يُفرض
عليهم دون توقيع

تقدّم الظلّ خطوة، فتشققت الأرض تحته، وارتجف
الهواء كأنّ السهل كلّه يختبر نواياهم.

لم يرفع سلاحًا، لم يُطلق هجومًا، بل مدّ ذراعه،
فتكوّنت أمامهم ثلاث طرق، لا تفصلها مسافات بل
مشاعر.

الأولى كانت مظلمة، باردة، خالية من أيّ صوت.
الثانية مضاءة بضوءٍ أصفر خادع، دافئ... أكثر مما
ينبغي.

أما الثالثة، فلم تكن طريقًا أصلًا، بل فراغًا يتنفس.
قال أثير وهو يضيق عينيه:

– هذا ليس اختيار مكان... بل اختيار ثمن.

اقترب نبال من الطريق المظلم، شعر بثقلٍ في صدره،
كأنّ القوّة التي يسكنها تُطالب بأن تُكسر قليلًا.

– هذا الطريق سيأخذ منا شيئًا... لكنّه لن يكذب.

زرام كان يحدّق في الطريق المضيء، وشفتيه
ترتجفان:

– وهذا سيمنحنا شيئًا... ثمّ يسلبنا أكثر.

أما مهاد، فكان ينظر إلى الفراغ.

النّار داخله هدأت فجأة، كأنّها تنتظر إذنًا.

– الثالث... لا يطلب شيئًا الآن، لكنّه سيطلبُ بكلّ شيء لاحقًا.

في تلك اللحظة، تردّد صوتُ أسير، لا من السماء ولا من الأرض:

– الطّريق لا يُختار بالعقل وحده، إن أخطأتم الآن، ستصلون... لكن ناقصين.

ساد صمتٌ قصير، ثمّ تقدّم نِيال دون أن ينظر خلفه، واختار الطّريق المظلم، لم يمنعه أحد، ولم يتبعه أحدٌ فورًا.

اختفى جسده تدريجيًّا، ومع آخر خطوة، شعروا بشيءٍ يُنتزع من قلوبهم جميعًا... ذكرى لم يعرفوا ما هي، لكنّ فراغها كان مؤلمًا.

صرخ زرام:

– ماذا أخذ؟

ردّ الصوت ذاته:

– أخذ ما كان يربطه بالخوف... وأخذ معكم جزءًا من الماضي.

لم يعد هناك مجال للتردد، دخل أثير الطّريق الثاني،

الضوء غلّفه، شعر بدفءٍ كاذب، براحةٍ سريعة، ثمّ...
شكّ، شكّ مضاعف، أعمق من ذي قبل، فهم أنّ هذا
الطريق لا يسلب الذكاء، بل يلوّثه.
بقي مهاد وزرام، نظر زرام إلى الفراغ، ثمّ إلى يديه،
وقال بصوتٍ ثابت لم يعرفه من قبل:
- الهروب لن ينقذني هذه المرّة!
ودخل.

أمّا مهاد، فكان الأخير، وقبل أن يخطو، اشتعلت
النّار في كفيه، لا غضبًا.. بل وضوحًا.
- إن كانت روح الخير محبوسة، فلن تُحرّر بنارٍ
عمياء.
دخل، وانغلق كلُّ شيء.

حين عادوا، لم يعودوا إلى السّهل... بل إلى سفح
الجبل الكبير.
كان الجبل أقرب ممّا ظنّوا، أعلى ممّا توقّعوا، حيّا
على نحوٍ مزعج، وفي صخوره،

كانت وجوه متحجرة، بشر؟ كائنات؟
ضحايا؟ لم يعرفوا، لكنهم عرفوا شيئًا
واحدًا:

"الشياطين لم تكن في القمة فقط...
كانت في الطريق."

ظهر أسير أخيرًا، واقفًا كمن سلم الأمانة.
- الآن فقط، دخلتم الحرب.

سأله نبال، وصوته أقل حدة، أكثر عمقًا:
- وأين روح الخير؟

أشار المعلم إلى صدورهم.

- لم تحبس في الجبل وحده... بل
تفرقت، جزء في الشجاعة، جزء في
الشك، جزء في الخوف، وجزء في النار
إن اجتمعتم دون أن تلتهموا بعضكم..

ستستيقظ

وفي أعلى الجبل، ارتفع صراخٌ غير بشريّ،
وأعلنت أول إشارة هجوم.
نظر الأصدقاء إلى بعضهم، لم يكونوا كاملين،
ولا مطمئنين، لكنهم كانوا واعين.
وهذا... كان أخطر ما يمكن أن يملكه مُقاتل.
ومع أول خطوة نحو الجبل، أغلقت كلُّ طرق
العودة.

الحرب لم تبدأ بالسيوف، ولا بالدم، بل بقرارٍ
واحد.. أن يتقدّموا، رغم أنّهم يعلمون أنّ كلَّ
خطوةٍ ستُغيّرهم إلى الأبد.
وبعضٍ ممتزجٍ بكثيرٍ من الجرأة تقدّم الأربعة
معًا بخطواتٍ كادوا يشعرون بثقلها على عاتقهم
لا من تحتهم!

مدّ يnal يده نحو أثير يحاول لمسّه وإذ بهم
فجأةً يرونه تناثر في الجوّ!
_ كيف اختفى أثير؟! "صرخ بها يnal دامعًا"
ردّ مهاد بأسى:

_ وكيف تستبعد هذا؟! ربّما نحن جميعاً نختفي
في ضباب الغرابة هذا،

ربّما بدأت حربنا مع اللاشيء من اختطاف أثيرا!
قال زرام باكيًا:

_ إن كنتُ أنا التالي لأثير... دعوني أخبركم أنّ
في جعبتي بعضًا من الأحلام لم تتحقق بعد، فإن
خرجتُم سالمين من هنا اذهبوا إلى بيتي، حيث
يوجد في الركن القائم في غرفتي صندوق فيه
كلّ الآماني، فافعلوا لي منها ما شئتم!
نظروا لبعضهم والدموع تفرقهم، وهل للرجال
دموع؟! ولكن، هل الخوف يعرف رجلاً من
أنثى؟!

_ يا حسرةً يا أثير كنت أنت الضحية الأولى فما
حالك الآن؟! "قالها ينال مغمغماً"
حتى بدأت مواكب النار تشتعل على هضابٍ
ليست بالقريبة منهم، لكنّ لهيبها يكاد يذيب
جلدهم، دقائق وبدأت بعدها النار بالهبوب من
عينيهم، وتصاعد الدخان من رأسهم، علا
صياحهم ولم يخفت إلا بسماع صوت أثير يقول
من مكانٍ لم يرونه:

– "هذه لعنة الهوة، ونحن لم نخرج منها
سالمين إلا بتحريرنا من ذاك الذنب،
فعلیکم معرفته والتوبة عنه، والتكفير عنه
أيضاً؛ حتى أعود أنا ونخرج معاً من هنا"
و حين هموا بسؤاله عما يعجُّ في أقحافهم،
اختفى صوته كلياً
فأيّ ذنب هذا؟ أيّة توبة؟ وأيّ تكفير؟!

تبدّد صمّت اللحظة المُقلقة، وكلّ ما بقي
هو شعورٌ مُوجعٌ بالفراغ الذي تركه أثير،
التفتَ ينال إلى رفاقه، ليلاحظَ الحزنَ
والياس الذي بدا على وجوههم، لكنّه قال
لهم مُشجّعاً:

– إنّ الوقت لا يسمح لنا بدخولِ نفقِ
اليأس والإحباط، علينا أن نكمل، لا يمكننا
أن نترك أثير وحده، فلعنةُ الهوة لن تختار
صيدها وتنتظر.

أجابَه مِهَادٌ بَعْدَمَا اسْتَجْمَعَ كُلُّ الْأَمَلِ فِي دَاخِلِهِ:
_ هَذَا صَحِيحٌ عَلَيْنَا مُوَاجِهَةٌ هَذِهِ اللَّعْنَةُ،
وَاسْتَدْرَاكَ خُطَانَا.

شَعَرَ زِرَامٌ بِالنُّورِ السَّمَاوِيِّ الَّذِي يُضِيءُ أَعْيُنَهُمْ،
وَابْتَسَمَ.

تَقَدَّمُوا مَعًا، كَانَتْ كُلُّ خُطْوَةٍ عَلَى الْجَبَلِ تَرْتَجِفُ
تَحْتَ أَقْدَامِهِمْ، وَصَوْتُ الْأَنْفِجَارَاتِ النَّارِيَةِ فِي
الْأَفْقِ يَزْدَادُ، كَانَ الْجَوُّ مَشْحُونًا بَيْنَ الْأَمَلِ فِي
إِعَادَةِ أَثِيرٍ وَإِبْطَالِ هَذِهِ اللَّعْنَةِ، وَالْخَوْفِ مِنْهَا.

فِي وَسْطِ الصَّمْتِ الَّذِي يُسْبِقُ الْعَاصِفَةَ، أُدْرِكُوا أَنَّ
ذَنْبَهُمْ لَيْسَ مَجْرَدَ خَطَا قَدِيمٍ، بَلْ هُوَ ثَقِيلٌ
كَالْجَبَلِ الَّذِي يَتَسَلَّقُونَهُ، وَيَفْرُضُ عَلَيْهِمْ تَنَازُلَاتٍ
عَنْ جِزْءٍ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

تَوَقَّفُوا فِي مَكَانِهِمْ جَمِيعًا، لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ
يَكْمَلُوا بِسَبَبِ اللَّهَيْبِ الَّذِي بَدَأَ يَقْتَرِبُ مِنْهُمْ أَكْثَرَ
فَأَكْثَرَ.

قَالَ زِرَامٌ:

_ لا بدّ أن هناك رمزًا مخفيًا، أو علامةً ما نستطيع
استعمالها ضدّ هذه اللعنة
صرخْ باستسلام:

_ لا يمكن أن يكون هذا مصيرنا، لا يمكن أن
نختفي مثل أثيرٍ أو نموت.. لا يمكن.
ولم يكمل زرام كلامه حتّى عادَ صوتُ أثير من
مكانٍ مجهولٍ يقولُ:

_ عليكم بالتّوبة، أو بإبطال هذه اللعنة وإلا
سنختفي جميعًا، ولا عودة لنا إلى الحياة.
صرخوا جميعًا:

_ أيّ توبةٍ هذه؟ وعمّ نتوب؟! عن ماذا نتخلّى؟ ما
هو الجزء الذي يجب أن نتخلّى عنه؟
مهّاد أو ما برأسه وقال:

_ هذا تحدّ داخليّ نحتاج لمواجهته معًا، لا قوّة لنا
إن بقينا مقبّدين بأخطائنا.

ارتجف الهواء حولهم، وكأنّ الجبل أنصت أخيرًا.
ساد صمتٌ طويل، ليس صمتٌ خوفٍ فقط، بل
صمتٌ مواجهة.

نظر نِيال إلى يديه، وتذكّر لحظة السُّقوط الأولى،
لم يكن سقوطًا عاديًا، كان هو من قال: «هَيَّا إِذَا»
هو من تقدّم أوَّلًا، وهو من لم يسأل: ماذا لو لم
نعد؟

همس بصوتٍ بالكاد يُسمع:

_ ربّما الذنب ليس خطيئة فعل، بل خطيئة اندفاع.
التفت إليه مهّاد، وعيناه تشتعلان لا غضبًا، بل
إدراكًا:

_ وأنا أردتُ دائمًا أن أكون السَّبب، صاحب الفكرة،
والقرار، حتّى حين ظننتُ أنّي أبحثُ عن مغامرة،
كنت أبحثُ عن إثبات.

زرام شدّ على صدره، وكأنّ الكلمات تؤلمه:

_ وأنا تبعتكما، لم أختَر ما أريدُ يومًا، فقط خفتُ أن
أبقى وحدي، لم أعترض، لم أفكّر، فقط ضحكْتُ
وركضتُ خلفكم.

حين نطق كلُّ منهم بما في داخله، هدأت النيران
قليلاً، لم تنطفئ لكنّها لم تغدّتهاجم.

عاد صوتُ أثير، أقرب هذه المرّة، كأنّه يتسرّب من

بين الصّخور:

_ «الهوة لا تعاقب الخطأ، بل تعاقب الهروب
منه.»

سقطت الكلمات عليهم أثقل من الحمم.

قال نبال، وعيناه مثبتتان على القمة:

_ كنا نظنُّ أنَّ الحرب هناك فوق، لكنها بدأت

يوم لم نتحمّل مسؤولية اختيارنا.

اقتربت النيران أكثر، لكنها لم تحرق، كانت

تحيط بهم كدائرة اختبار.

رفع مهاد كفيه، فاشتعلت النار فيهما، لكن هذه

المرّة لم تكن عشوائية.

قال بصوتٍ ثابت:

_ إن كانت اللعنة نارًا، فلن تُطفأ بنار غضب بل

بنار اعتراف.

أغلقوا أعينهم، لم يرفعوا سيوفًا، لم يستدعوا

قوّة... اعترفوا فقط.

اعترف نبال بخوفه من الفشل الذي كان يخبئه

خلف الشجاعة.

اعترف مهاد برغبته في السيطرة التي لبسها

ثوب الحماس.

_ «الهوة لا تعاقب الخطأ، بل تعاقب الهروب
منه.»

سقطت الكلمات عليهم أثقل من الحمم.

قال نبال، وعيناه مثبتتان على القمة:

_ كنا نظنُّ أنَّ الحرب هناك فوق، لكنها بدأت

يوم لم نتحمّل مسؤولية اختيارنا.

اقتربت النيران أكثر، لكنها لم تحرق، كانت

تحيط بهم كدائرة اختبار.

رفع مهاد كفيه، فاشتعلت النار فيهما، لكن هذه

المرّة لم تكن عشوائية.

قال بصوتٍ ثابت:

_ إن كانت اللعنة نارًا، فلن تُطفأ بنارٍ غضب بل

بنار اعتراف.

أغلقوا أعينهم، لم يرفعوا سيوفًا، لم يستدعوا

قوّة... اعترفوا فقط.

اعترف نبال بخوفه من الفشل الذي كان يخبئه

خلف الشجاعة.

اعترف مهاد برغبته في السيطرة التي لبسها

ثوب الحماس.

واعترف زرام بخوفه من الوحدة أكثر من خوفه من
الخطر.

ومع كل اعترافٍ كانت صخرة من الجبل تتشقق.
فجأةً، انشقّ الهواء أمامهم، وظهر أثيرٌ لكن ليس كما
كان.

كان شفافاً قليلاً كمن يقف بين عالمين.
نظر إليهم، وفي عينيه شيءٌ لم يكن فيه من قبل،
الطمأنينة.

_ لم يكن المطلوب أن تكونوا بلا ذنب، قال بهدوء، بل
أن تعرفوه وتختاروا رُغمًا عنه.

اقترب منهم خطوة، لكنّ الأرض اهتزت بعنف.
صوتٌ عميقٌ خرج من قلب الجبل، هذه المرة ليس
صراخًا بل غضبًا واعيًا.

قال أثير سريعًا:

_ لم تنته اللعنة، أنتم كسرتم القيد الأول فقط، الذنب
الفردى سهل، لكن هناك ذنبٌ أكبر لم تواجهوه بعد.
تجمّدوا مكانهم دُعرًا!

_ أيُّ ذنبٍ أكبر؟! سأل زرام بخفوت.

صمت أثير لحظةً، وكأنّ الإجابة أثقل مما يُقال.

ثم همس:

_ ذنبُ أن تنقذوا أنفسكم وتتركوا غيركم يسقط.
وفي اللحظة ذاتها، ارتفعت منحدرات الجبل،
وانكشفت على جانبيه وجوهٌ حجريّةٌ تتحرك
ببطءٍ، عيونها مفتوحة، أفواهها صامتة، لكنّها
تتألم.

لم يكونوا ضحايا الشياطين فقط، كانوا ساقطين
آخرين، أشخاصًا وصلوا إلى هنا، واختاروا النجاة
الفردية.

اهتزّت الأرض تحت أقدامهم من جديد، وبدأ جسدُ
أثير يتلاشى مرّةً أخرى.

مدّ نيال يده نحوه، لكنّ أثيرًا ابتسم ابتسامّةً
خفيفةً وقال:

_ الاختبار الحقيقي لم يبدأ بعد.

واختفى!

لم يبقَ سوى الجبل، والنار التي لم تعد تحاصرهم
بل تدفعهم إلى الأمام.

نظر الثلاثة إلى بعضهم، لم يعودوا يبكون، ولا
يسألون لماذا.

فوقهم، في أعلى القمة، بدأت تتشكل ملامح ظلّ
ضخم، ليس شيطانًا واحدًا، بل كيانًا يتغذى من
اختيارات البشر.

خطا نيال خطوةً نحو الأعلى، تبعه مهاد، ثمّ زرام.
هذه المرّة، لم تكن الخطوةً ثقيلة، كانت واعية.
لكن في أعماق الجبل، كان شيءٌ آخرٌ يستيقظ، لم
يكن شيطانًا، ولا خيرًا خالصًا، كان ينتظر أن يختاروا
مرّةً أخرى.

هو ثقيلٌ كالجبل الذي يقفون عند سفحه، لا يرى
بالعين، لكنّه يُثقل الأرواح.

توقف نيال فجأة، وأغمض عينيه كأنه يحاول أن
يُنصت لشيءٍ أعمق من أصواتِ النَّارِ البعيدة.
قال بصوتٍ خافت:

– أثيرٌ لم يقل إنَّ الذنبَ ذنبٌ واحدٍ منّا، بل ذنبٌ لم
نتحرّر منه جميعًا.

نظر مهاد إلى يديه، حيث كانت بقايا النَّارِ ترتجف
كوميضٍ خجول، وقال:

– نحن سقطنا لأننا تبعنا الفضول دون تفكير، لكننا
بقينا لأننا قبلنا الحرب دون فهم.

صمت قليلاً ثم أضاف:

– وربما... لأن كل واحد منا كان يهرب من شيء.

ارتجف صوت زرام وهو يسأل:

– أتهربون أنتم أيضاً؟

ابتسم نبال بحزن صادق:

– كنت أهرب من ضعفي، فأخفيه خلف الشجاعة.

وقال مهاد:

– وأنا كنت أظن دائماً أن علي إنقاذ الجميع، حتى

لو احترقت وحدي.

خفض زرام رأسه:

– وأنا كنت أهرب من كل مواجهة، حتى أنني لم

أعد أواجه نفسي!

ساد صمتٌ مختلفٌ هذه المرة، ليس صمتٌ الخوف،

بل صمتٌ الاعتراف.

وفجأة، خف وهج النار في الأفق، وكأنَّ الجبل

نفسه ينصت إليهم. 62

قال نبال بثباتٍ لم يعرفه من قبل:

– لعلّ ذنبنا الحقيقي لم يكن الفضول، بل

كبرياء القلب، ظننا أننا قادرون وحدنا، وأنا

سنفهم كلَّ شيءٍ بعقولنا فقط.

ما إن نطق كلماته حتى اهتزّت الصّخور تحت

أقدامهم، وارتفع من قلبِ الجبل ضوءٌ خافت،

لا يشبه نارًا ولا برقًا، بل يشبه نبضًا.

عاد صوتٌ أثير، أوضح هذه المرّة، أقرب:

– التّوبة ليست كلمات، بل اختيارٌ جديد، إن

أردتم كسري، فاخترّوا أن تثقوا ببعضكم لا

بأنفسكم فقط.

نظر الثلاثة إلى بعضهم، ولم يحتج الأمر إلى

اتّفاقٍ منطوق.

تقدّموا معًا، لا أحد يسبق الآخر، ولا أحد

يتراجع.

مدّ مهاد يده، فاشتعلت نارٌ هادئةٌ لا تحرق،

وضع نبال يده فوق يده، فصار للنار اتّجاه، ثمّ

فعل زرام مثله، فصار للنار معنى.

توهج الضوء فجأة، وامتد خيط من النور نحو
السماء، ثم عاد ليرتطم بالأرض أمامهم.
ومن ذلك الضوء... تشكل أثير.
لم يكن متناثرًا هذه المرة، بل واقفًا، يلهث،
وعيناه تلمعان بدهشة وامتنان.
قال بصوتٍ متعبٍ لكنه حي:
— لقد كسرتم اللعنة... لم تكن الهوة تريد
أرواحنا، بل انقسامنا.
اقتربوا منه بسرعة، لا ليطمئئنا فقط، بل
ليدركوا أنهم عادوا أربعة كما بدأوا، لكنهم ليسوا
كما كانوا.
في تلك اللحظة، تصدع الجبل بصوتٍ عميق،
وانشق جزء من صخوره، كاشفًا ممرًا مظلمًا
يقود إلى الأعلى.
لكن الظلام فيه لم يكن مُرعبًا، بل صادقًا.
ظهر المُعلم أسر على صخرة قريبة، وقال
بصوتٍ يحمل رضا نادرًا:

– الآن فهتمم! الشياطين لا تبدأ بالهجوم، بل
بالتفرقة، حين كدتم تفقدون أحدكم، كدتم تفقدون
أنفسكم، نصركم وعزوتكم.

رفع عصاه نحو الممر المفتوح:

– هناك تُحبس بقايا روح الخير، لكنّها لن تتحرّر
بقوّة واحدة، بل باتّحاد قواكم جميعًا.

نظر الأصدقاء إلى الطريق الجديد، لم تعد النار في
الأفق تهدّدهم كما قبل، ولم يعد الجبل يبدو كعدوّ،
بل كتحدّ.

قال أثير، وقد استعاد هدوءه المعهود:

– الحرب ليست ضدّ الشياطين فقط... بل ضدّ كلّ
ما يجعلنا ننسى من نحن.

أوما نيال، وقال:

– ولن ننسى مرّةً أخرى.

خطوا نحو الممرّ، وهذه المرّة لم يشعروا بثقل

الخطوات، بل بثقل المعنى.

لم تكن الشجاعة ألا يخافوا، ولا القوّة ألا
يسقطوا، بل أن يسقطوا، ويختاروا النهوض
معًا.

وفي عمق الجبل، بدأ نبض آخر يتردد أقوى من
قبل بكثير، كأنّ روح الخير نفسها استيقظت
على وقع خطواتهم.

الباب الرابع

الكتاب

رحاب دوبا اسماء العيسى

لانا حسن سماح حسني



دخلوا الممرَّ بقلوبٍ ترتجفُ، لا من الخوف، بل
من ثِقَلِ الحقيقة، فتحركتِ الظلالُ على
الجدران، وكلُّ واحدٍ منهم رأى نفسه بصورةٍ
أقسى ممَّا يحتمل.

اقتربتِ الأشباحُ منهم حتى كادت تبتلعُ الضوء،
وبدأ الشَّقُّ الذهبيُّ يخفتُ كنبضٍ يُحتضر.
صرخ أثير:

_ لا تهربوا، لا تُصدِّقوا ما ترونه!

وفي لحظةٍ مواجهةٍ صامتةٍ، تلاشى الظلُّ
كدخانٍ انكشف سرُّه، فرفع نِيال رأسه وقال
بثبات:

_ لستُ قائدًا وحدي، ولسنا وحدنا.

همس مهاد، والنارُ في عينيه هادئة:
_ إن احترقتُ فلن أكونَ وحدي في هذا
الرماد.

تراجعتِ الظلالُ وانكشفت حتى اختفت، ازداد
الضوءُ الذهبيُّ سطوعًا، كأنَّ القلبَ استعاد
إيقاعه، واتسع الشَّقُّ أمامهم حتى صار بؤابةً
دائريَّةً من نورٍ حيٍّ ينتظر عبورهم.
وحين حاولوا العبور، اندفعت موجةٌ ضوءٍ
عنيفةٌ دفعتهم خطوةً إلى الخلف، كأنَّ البؤابةَ
تختبر صدقهم الأخير.
تشابكت أيديهم من جديد، فتغيَّر وهجُ الدائرة
وصار أكثرَ صفاءً.
خطا نِبالٌ أوَّلًا، فارتجف الجبلُ كلُّه، وتبعه أثير
وعيناه معلقتان بالنَّبضِ الذهبيِّ.
مرَّ مهاد، والنَّارُ حوله تحوَّلت إلى هالةٍ هادئةٍ،
وعبر زرام دون أن يلتفت خلفه.
في اللحظة التي اكتمل فيها عبورهم، انغلقتِ
البؤابةُ بصوتٍ عميقٍ، وانكشف أمامهم قلبٌ من
نورٍ مقيَّدٍ بسلاسلٍ ظلَّت تتحرَّك ببطءٍ نحوهم.
تقدَّموا خطوةً، فتردَّد الصدى في الفضاء، كما لو
أنَّ المكانَ نفسه يتنفس على إيقاع اقترابهم.

كان القلبُ المضيءُ معلقًا في هَوَّةٍ بلا قرار، يخفقُ
ببطءٍ ثقيلٍ، وكلُّ نبضةٍ منه تُرسلُ خيوطًا من نورٍ
تتكسّرُ على سلاسلِ الظلِّ الملتفّةِ حوله.

لم تكنِ السَّلاسلُ جامدةً؛ كانت تتحرّكُ ككائناتٍ حيّةٍ،
تزحفُ وتلتفُّ، وكلّما خفق القلبُ شدّت قبضتها أكثر،
كأنّها تخشى أن يستيقظَ تمامًا.

همس أثير، وصوته يختلط بارتجاف الضوء:

_ هذا ليس سجنًا، إنه عهدٌ مكسور.

ومع آخر شقٍّ في السَّلاسلِ، انفجر القلبُ بنبضةٍ
واحدةٍ عظيمةٍ؛ لم تكن موجةً تدفعهم إلى الخلف
هذه المرّة، بل موجةً تجذبهم إلى الأمام. غمرهم
الضوءُ، وسقطوا - أو ارتفعوا - في فضاءٍ لا أرضَ
له.

وحين انحسر الوهج، وجدوا أنفسهم واقفين على
قمّةِ الجبلِ المرتفع، ولكن السَّماءُ لم تكن كما تركوها؛
كانت مشقوقةً بخيوطٍ ذهبيةٍ يشبه ذلك الذي قادهم،
والهواءُ أنقى، كأنَّ العالمَ تخلصَ من ثقلٍ قديم.

كان القلبُ المضيءُ معلقًا في هوةٍ بلا قرار، يخفقُ
ببطءٍ ثقيلٍ، وكلُّ نبضةٍ منه تُرسلُ خيوطًا من نورٍ
تتكسّرُ على سلاسلِ الظلِّ الملتفةِ حوله.

لم تكنِ السَّلاسلُ جامدةً؛ كانت تتحرّكُ ككائناتٍ
حيّة، تزحفُ وتلتفُّ، وكلّما خفق القلبُ شدّت
قبضتها أكثر، كأنّها تخشى أن يستيقظَ تمامًا.
همس أثير، وصوته يختلط بارتجاف الضوء:
_ هذا ليس سجنًا، إنّه عهدٌ مكسور.

ومع آخر شقٍّ في السَّلاسلِ، انفجر القلبُ بنبضةٍ
واحدةٍ عظيمةٍ؛ لم تكن موجةً تدفعهم إلى الخلف
هذه المرّة، بل موجةً تجذبهم إلى الأمام. غمرهم
الضوءُ، وسقطوا - أو ارتفعوا - في فضاءٍ لا
أرضَ له.

وحين انحسر الوهج، وجدوا أنفسهم واقفين على
قمّةِ الجبلِ المرتفع، ولكن السَّماءَ لم تكن كما
تركوها؛ كانت مشقوقةً بخيوطٍ ذهبيٍّ يشبه ذلك
الذي قادهم، والهواءُ أنقى، كأنَّ العالمَ تخلّص من
ثقلٍ قديم.

نظر أثير إلى يديه، ثم إلى رفاقه:

_ هل انتهى الأمر؟!

ابتسم مهاد، والنار في عينيه صارت دفنًا لا احتراقًا:

_ لا شيء ينتهي، لكنه تغيّر.

أما نبال فحدّق في الأفق البعيد، حيث بدأت ظلالٌ

جديدة تتشكل؛ لا تهدد، بل تنتظر.

ارتجف القلب ثم خفق مرّةً واحدةً واختفى؛ لم

ينفجر، لم يسطع، بل انطفأ، تاركًا خلفه ضوءًا

مستقرًا في صدورهم.

حلّ صمتٌ عميقٌ، اختفتِ السلاسلُ كلّها، ولم يعد

هناك قلبٌ معلقٌ في الفراغ، فقط مساحةٌ مفتوحةٌ

خفيفةٌ، كأنّ الجبلَ نفسه تنفّس أخيرًا.

قال أثير بصوتٍ منخفضٍ:

_ أين ذهب؟

أجاب نبال، وعيناه تلمعان بنورٍ لم يكن فيهما من

قبل:

_ لم يعد يحتاجُ إلى مكانٍ واحد.

اهتزت الأرض، لا انهيارًا بل تحوُّلاً، تشققت
الصخور من حولهم، وانفتح سقف الجبل على
سماء صافية، لم يعد هناك شق زهبي في الأعلى؛
لأن الخيِّط صار ممتدًا من صدورهم إلى الأفق.
فهموا عندها..

لم يكونوا عابرين لبوابة، كانوا هم البوابة.
ومع أوّل خطوة لهم خارج قلب الجبل، تغيّر
العالم؛ لا بضوءٍ يُعَمِّي الأبصار، بل بنبض هاديٍّ بدأ
ينتشر من أربعة قلوبٍ تحمل ظلّها ونورها معًا.
ومع كلّ خطوة، كان النبض ينتشر لا كقوّة تُخضع،
بل كحضورٍ يُذكر.

وفي مكانٍ بعيدٍ، في قلبٍ آخر لم يعرف النور بعد،
خفق شيءٌ صغيرٌ؛ لا إعلانًا لبداية جديدة، بل
استمرارًا لحكاية تعلّمت أخيرًا أن تمشي بلا
سلاسل.

وهكذا انتهت الحكاية؛

لا بانطفاء،

ولا بانفجارٍ،

بل بائساعٍ هاديٍّ يشبه قلبًا تعلّم أخيرًا كيف يخفق
دون قيود.

تابعوا السَّيرَ معًا، متشابكي الأيدي، ثمَّ بعد مسافةٍ
قصيرةٍ بدا الجبلُ وكأنَّه يمشي نحوهم. توقَّف أثير
ورفع رأسه إلى السَّماء؛ انقبضت حدقتا عينيه،
وكانَّ رعبًا ما تخلَّهما، قال بصوتٍ يختنق بين حباله
الصَّوتية:

— أظنُّ أنَّ كابوسنا لم ينتهِ بعد.

تحسَّس مهاد قلبه، وكأنَّه بدأ يشعرُ بوجودِ شُعلةٍ ما،
أو ربَّما نُدبةٍ شُعلةٍ قد مرَّت فتركت أثرًا صامئًا لا
يزول.

زرام، الذي لم يكن يلتفتُ خلفه أبدًا، فعل ذلك هذه
المرة، لم يرَ البوابة، لم يرَ القلب، لكنَّه شعر بأنَّ
الفراغ الذي خلفهم لم يُغلق بعد.

أمَّا نيال، فاستنتج ما رأى وحده دون أن يسمعه من
أحد.

ما انطفأ سابقًا لم ينتهِ بعد، وما تحرَّر لم يستقرَّ بعد.
تردَّد نبضٌ خفيفٌ في صدورهم؛ ليس في صدورهم

فقط هذه المرة،

بل في المكانِ نفسه. ثمَّ عاد كلُّ شيءٍ هادئًا، سكونٌ
لا يُشبهه الخاتمة، ولا يُشبهه البداية، معلقًا ظنونهم
في المنتصف.

ساروا من جديد، ونظراتُ الخوفِ تسبقهم: هل
سيُعاد ما كان، أم سيُنسى؟
ساروا بصمتٍ، وأقدامهم تلمسُ الأرضَ كما لو كانت
تسترقُّ سرًّا قديمًا.

لم يكن العالمُ أمامهم مجردَ مساحةٍ، بل كيانًا
يتنفسُ معهم، يتابع خطواتهم بنبضٍ خفيٍّ لا يُسمع
إلا لمن يملكون الجرأةَ على الشعور به.

مرَّت لحظاتٌ لم تُقسَّم بعد بين خوفٍ وطمأنينةٍ،
فجأةً ارتجَّت الأرضُ تحت أقدامهم هذه المرَّة، لكن
ليس من حركةٍ جبليةٍ أو انهيارٍ بل من صوتٍ
خافتٍ أشبه بصرخةٍ صغيرةٍ من عمق الزَّمان.
نظر نِيال إلى زِرام وأثير، وعيناه تتلألآن، وأثناء
سيرهم بدأتِ الظلالُ من حولهم تتغيَّر؛ لم تعد
مظلمةً تمامًا، ولم تعد واضحةً بشكلٍ كاملٍ.

نبض المكان لم يكن نابغاً من قلوبهم وحدها، بل من شيءٍ أعمق، شيءٍ حيٍّ، بدا وكأنه يختبرهم.

حين وصلوا إلى ما يشبه هضبةً، توقّف أثير فجأةً، رفع يده إلى السماء، وكان شيئاً ما يرسم خطوطه أمامهم؛ خطوطاً لم ترسم من قبل.

الأرض تحتهم بدأت تتشقق بلطفٍ، وكأنها تفتح طريقاً ليس للنظر، بل للشعور.

ثم سمعوا همساً؛ ليس كلماتٍ، بل إحساساً، كان همسُ المكانِ نفسه يقول لهم:

_ لقد بدأت الرحلة الحقيقية، لم تُغلق البوابة، ولم تنطفئ النار؛ لقد أصبحتم أنتم الحكاية، والزمان والمكان مجرد تفاصيل.

تبادلوا النظرات؛ لم يكن هناك خوفٌ هذه المرة، بل وعيٌ جديدٌ، شعورٌ بالمسؤولية الغامرة.

لم يعودوا مجرد مسافرين؛ كانوا حُرَّاساً، رواداً، وحكايةً تمشي على نفسها في عالمٍ لم يعد يُقاس بالماضي أو المستقبل، بل باللحظة التي تتنفس معهم.

ومع أوّل خطوةٍ جديدةٍ على الهضبة، ارتجف العالمٌ من حولهم برفقٍ، وكأنّ الجبلَ نفسه كان يبتسم، أو ربّما يختبرهم.

وبينما يمضون أدركوا شيئًا واحدًا.. ما لم ينتهِ بعد ليس شيئًا يجب أن يُخافَ منه، بل شيءٌ يجب أن يُحسَّ؛ شيءٌ يعلمهم كيف يكونون بلا قيودٍ، بلا نهايةٍ، بلا بدايةٍ... فقط امتدادٌ مستمرٌّ للنورِ والظّلِّ، للحكاية التي أصبحت جزءًا منهم.

ثمّ توقّفوا فجأةً، لم يكن هناك جبلٌ، ولا بؤابةً، ولا ظلالٌ ترقص.

كلُّ شيءٍ أصبح صامتًا، لكنّه صمتٌ لا يعني انطفاءً، بل حالةً انتظارٍ؛ انتظارٌ لشيءٍ لم يُسمَّ بعد.

رفع نِيال رأسه، وأثيّر وزرام خلفه، وكلُّ واحدٍ منهم شعر بأنّ ما بدأه لم ينتهِ، وأنّ ما ظنّوه نهايةً كان مجرد فصلٍ من كتابٍ بلا غلاف.

ابتسموا؛ ليس ابتسامة فرح، بل ابتسامة إدراك،
لأنهم فهموا أخيرًا: لا بداية ولا نهاية، فقط امتداد
حياة تمشي بلا قيود.

وهكذا انتهت الحكاية؛

بل بالامتداد، بالنَّبض، بالهدوء الذي يحمل كل شيء،
ويترك القلوب مفتوحة على كل الاحتمالات.
وإذا بهم مندهشون من ذلك، فيخرج صوت يهمس
لهم:

_ لقد نلتُم حُرِّيَّتكم، فلکم الانطلاق ورمي كل
المشاهد وراءكم.

وإذا بواحد منهم يقول في نفسه:

_ هل يُعقل أن أنسى مثل هذه الهوة؟

نعم... تغيّرنا، وانطلقت ذواتنا منتزعة تلك السلاسل،
مالئة الروح بتلك الأنفاس العطرة التي تُنسي
همومًا أثقلت كواهلنا.

في كل منا بصمة تركتها فينا تلك الهوة، ستظلُّ
لاصقة بنا.

فهل حقًا عالمنا هو عالم السمو، أم أنه عالم انحدرت
فيه الذات البشرية حتى أصبحت حيوانات؟

وهكذا انطلقوا نحو أفقٍ جديدٍ فيه من المغامراتِ
الكثيرِ، وإذا بهم يسرون، فتقدّم أثير يسألهم:
_ هل نعودُ إلى حيثُ كنّا؟ أم ربّما إلى واقعِنَا؟

ولعلني في داخلي أصمّمُ البقاءَ هنا بما أملكُ من
طاقةٍ وحرّيّةٍ، أكثر من الحماسةِ للرّجوعِ إلى عهدِنَا
آنفاً... كلُّنا أصبحنا معلقين بذلك الأفق، وتلك
اللحظاتِ التي اكتمل فيها عبورُنَا، ولم ننتهِ من
هذه البوّابة حتّى انتهى بنا المطافُ إلى قلبٍ مقيدٍ
بسلاسلٍ ظلّ تتحرّكُ ببطءٍ.
خطف منا تلك الصّدّماّتِ لينطوي بنا، ويحملنا في
ظلّ تلك الدّهشةِ إلى النورِ الحقيقيِّ، حيثُ
الحقيقةُ التي كانت.

الباب الخامس

الكتاب

محمد سيجري مجد المصري

فخري المحسيري علي النزال



لا تُقال بل تُختَبَر، لم يكن هناك نورٌ هذه المرّة ولا
ظلالٌ تتراقص على الجدران، كان هناك اتّساعٌ
صامتٌ كأنّهم دخلوا داخلَ فكرةٍ لم تولد بعد،
توقّف نِيال وقال ببطء: الحقيقةُ لم تكن في القلب
ولا في السّلاسل، كانت فينا حين صدّقنا أنّنا
بحاجةٍ إلى إنقاذ.

ساد صمتٌ عميقٌ، ثمّ خفق النّبض مرّةً واحدةً، لكنّه
لم يكن من صدورهم فقط، بل من تحتهم، ارتجف
الامتدادُ الأبيض وانشقّ بخطّ شفافٍ طويل، ومن
الشّق تصاعدت صورٌ ليست ذكريات بل احتمالات،
رأوا أنفسهم إن عادوا أناساً عاديين يحملون سرّاً
لا يُقال، وإن بقوا كياناتٍ بلا أسماء تذوّب في
الإدراك، لكن بين الصّورتين ظهر ظلٌّ لم يكن
خلفهما بل تحتها معاً، قال زرام بتوتّر: هذا لم يكن
هنا، تمّدّد الظلُّ وتكاثف ثم ارتفع ببطءٍ وتكلّم:
حين فهتمم الحقيقة حرّرتم ما كان محجوباً بها،
تبادل الأربعة نظراتٍ سريعةٍ وفهموا متأخرين أنّ
القلب لم يكن سجيناً، بل حاجزاً.

انقسم الظلُّ إلى أربع هيئاتٍ تشبههم بعينين
فارغتين، واندفعت نحوهم دفعةً واحدةً، لم تكن
معركة قوى، بل معركة احتمالات، كلٌّ واحدٍ واجه
نسخته التي تمثل خوفه وشكّه ورغبته الخفية
في السيطرة، صرخ الصوّث من كلِّ اتجاهٍ: إن لم
تختاروا من تكونون سأختارُ أنا.

بدأت الهيئاتُ تندمجُ بهم بالقوّة، الأرضُ تتفككُ
والسّماءُ تتشققُ، وخفق الثّبُصُ مجدّداً. لكن هذه
المرة كان قراراً، مدّ أثير يده نحو نيال، التقطه
زرام، تشابك مهاد معهم، وفي لحظة اتصالٍ
أيديهم توقفت الهيئات.

قال نيال بثباتٍ: لسنا اختياراً واحداً.

قال زرام: لسنا ظلّاً أو نوراً.

قال مهاد: نحن التّوازن.

توهج بين أيديهم ضوءاً بلونٍ لم يُسمَّ بعد، واندفع
الكيان بكلِّ قوّته ليمنع اكتماله، انهارت الأرض
واتسع الشقُّ وانكسرت السّماءُ، وفي اللّحظة
الأخيرة انفجر الصّوء كولادةٍ نجمٍ، مزق الهيئات
وأغلق الصّدع وسقط كلُّ شيءٍ في صمتٍ ثقيلٍ،

عاد الهواء، عادت السماء، وقفوا في عالمٍ عاديٍّ بلا
هويةٍ ولا امتداد، لكنهم لاحظوا أن ظلالهم لم تعد
منفصلة بل متصلة في ظلٍّ واحدٍ طويلٍ خلفهم،
ارتجف الظلُّ المشترك ثم انفصل ببطءٍ وارتفع،
متشكلاً في هيئةٍ أعظم من السابقة وأكثر ثباتاً،
ابتسم وقال بصوتٍ عميقٍ: الآن أنتم القفل. وفي
اللحظة التي نطق فيها انطفأت الشمس ولم يهبط
الظلام تدريجياً بل سقط دفعةً واحدةً كستارٍ ثقيلٍ،
وارتفعت الرياح من العدم تدور حولهم بعنفٍ، وبدأت
الأرض تحت أقدامهم تتشقق من جديد، لكن
الشقوق هذه المرة لم تكن تفتح فراغاً بل تكشف
عيوناً متوهجة تنظر إليهم من الأعماق، وكان الظلُّ
الذي انفصل عنهم يتمدد ويكبر حتى صار أطول من
الأبراج وأعرض من الساحة، ورفع يده فأنحنى
العالم كما لو أن الجاذبية تبدلت فجأة، وسقط الناس
في الشوارع وهم يصرخون، واختلطت الأصوات
بدوي يشبه انكسار السماء نفسها، وشعر الأربعة أن
الظل لا يقف أمامهم بل فوقهم وداخلهم في آنٍ

وَأَنَّ اتِّصَالَهُمُ السَّابِقَ لَمْ يَغْلُقِ الْبَوَابَةَ بَلْ جَعَلَهُمْ
مَرْكَزَهَا، وَخَفِقَ النَّبِضُ مَجْدِّدًا لَكِنْ هَذِهِ الْمَرَّةَ كَانَ
مَوْلَمًا، كَأَنَّ شَيْئًا يَحَاوِلُ الْخُرُوجَ مِنْ صَدُورِهِمْ
بِالْقُوَّةِ، وَقَالَ الصَّوْتُ الْعَمِيقُ: أَنْتُمْ الْمِفْتَاحُ وَأَنْتُمْ
الْبَابُ، وَإِنْ تَحَطَّمِ الْقِفْلُ تَحَطَّمِ الْعَالَمُ كُلُّهُ، وَبَدَأَتْ
مَلَامِحُ الْمَدِينَةِ مِنْ حَوْلِهِمْ تَتَشَوَّهُ، الْمَبَانِي تَذُوبُ
كَالشَّمْعِ، وَالسَّمَاءُ تَتَشَقَّقُ إِلَى طَبَقَاتٍ تَكْشِفُ خَلْفَهَا
سَمَاوَاتٍ أُخْرَى مَظْلَمَةٌ مَلِيئَةٌ بِظُلَالٍ تَتَحَرَّكُ
بِانْتِظَارِ الْإِشَارَةِ، وَمَدَّ الظِّلُّ يَدَهُ نَحْوَهُمْ فَانْفَصَلَتْ
أَقْدَامُهُمْ عَنِ الْأَرْضِ وَارْتَفَعُوا رَغَمَ مَقَاوِمَتِهِمْ،
وَشَعَرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ ظِلَّهُ الشَّخْصِيَّ يَعُودُ
لِيَلْتَصِقَ بِهِ، لَكِنْ لَيْسَ كَمَا كَانَ، بَلْ كَقَيْدٍ يَحَاوِلُ
السَّيْطِرَةَ عَلَى جَسَدِهِ، وَفَجْأَةً انْطَلَقَتْ شِرَارَةٌ مِنْ
صَدْرِ مِهَادٍ تَبَعْتَهَا وَمَضَتْ مِنْ أَثِيرِ ثَمَّ خَيْطٍ أَسْوَدٍ
مِنْ زِرَامٍ، ثَمَّ وَهَجَّ حَادٌّ مِنْ نِيَالٍ، وَتَشَابَكَتْ
الطَّاقَاتُ مَرَّةً أُخْرَى لَكِنْ بَعْنِفٍ أَكْبَرَ، وَتَصَادَمَتْ
دَاخِلَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَتَّحِدَ وَانْفَجَرَتْ مَوْجَةٌ صَدْمَةٍ
هَائِلَةٌ دَفَعَتْ الظِّلَّ خَطْوَةً إِلَى الْوَرَاءِ، وَاهْتَزَّتْ
الْعَيُونُ فِي الشَّقُوقِ،

وأغلقت بعضها في ألم، لكن السماء لم تلتئم بل
اتسعت الشقوق أكثر، وبدأت كيانات أخرى
تنزلق منها كأن جيشاً كاملاً كان ينتظر اللحظة،
وقال الظل بصوتٍ أقسى: الآن بدأ الأمر
الحقيقي، واندفعت الكيانات نحو المدينة
تسقط بين الأبنية وتتخذ أشكال البشر وتتحرك
بسرعة مخيفة، وعرف الأربعة أن المعركة لم
تعد بينهم وبين كيان واحد، بل بينهم وبين
عالم كامل يتفكك، ومد نبال يده نحو الأرض
فاهتز الظل المشترك خلفهم، وعاد ليندمج بهم
لا كعدو بل سلاح، واشتعل الضوء ذو اللون
المجهول من جديد، لكنه كان متصدعاً كأنه لن
يحتمل طويلاً، وقال أثير: إن سقطنا الآن لن
يبقى شيء، ورد زرام إذاً لا نسقط، وانطلقوا
دفعاً واحدة نحو أول الكيانات الساقطة
واصطدموا بها في الهواء، وارتجت المدينة
تحتهم، واندفع الضوء والظلام في عاصفة
واحدة

تمزق الأبراج وتفتح السماء أكثر، وكلما سقط
كيان انشقت السماء أوسع، وكلما أغلق شق
انفتحت ثلاثة غيره، وأدركوا أن الوقت ينفذ،
وأن عليهم ضرب المصدر لا الأفرع، فالتفتوا
نحو الظل الأعظم الذي بدأ يتشقق من الداخل
ويطلق طاقة سوداء تحرق الهواء نفسه،
واندفعوا نحوه معاً كرمح واحد يخترق
العاصفة، وفي اللحظة التي لامسوه فيها،
انقسم الضوء إلى نصفين، وانفجر العالم في
ومضة بيضاء صماء، ثم عم صمت ثقيل لا
صوت فيه ولا حركة ولا زمن، وكان كل شيء
توقف عند حد الانهيار الأخير.

وفجأة، بدأ اللون الأصفر يصبح باهتاً أكثر،
والضجيج يعلو في المكان، وظهر المعلم
يقول: الآن عليكم الانتباه جيداً، مصير الهوة
في أيديكم، عليكم أن تتغلبوا على الشياطين.
واختفى صوت المعلم وازداد صوت الضجيج،

زرام بدأ ينظرُ إلى الخلفِ هذه المرّة أكثر، وأثير
أصبح أكثر حكمةً وقال : يا أصدقاء لقد اكتشفتُ
السّرّ الذي سيجعلنا نتقدّمُ إلى الأمام، القوّةُ في
اتّحادنا والأصواتُ علّت كثيراً والسّماء بدأت ترعدُ
وكأنّها النّهاية واختفت، والآن انهيارٌ آخر ويقول
زرام: نحنُ الآن أمامَ تحدٍّ جديدٍ يا شباب....

الباب السادس

الكتاب

معتصم كرمه مريم بركات

بيلسان جمول مرام الزرعوني



لم يذم الهدوء طويلاً، فما إن عاد النّبض إلى
المدينة حتى ارتجف الفضاء فوقها، كما لو أنّ
السّماء كانت مجرد قشرة رقيقة تخفي ما
وراءها.

انشق أحد التّصدّعات القديمة فجأةً، لكن هذه
المرة لم يخرج منه ظلٌّ... بل ضوءٌ أسود، كثيف،
يبتلع ما يلامسه دون أن يترك أثراً.
تراجع أثير خطوة، وتمتم:

_ هذا ليس من جيش الظلال، هذا من المصدر.
ارتفع الظلّ الأعظم من جديد، لكن ليس بهيئته
السّابقة؛ كان الآن متشقّقاً من الدّاخل، وكأنّ
شيئاً أقوى يحاول الولادة عبره.

قال المعلّم وصوته لم يعد من مكان محدّد بل
من الهواء ذاته:

_ لقد لمسوا الحافة.

سأل نبال بحدة:

_ حافة ماذا؟!

لم يُجب الصّوت مباشرة.

بدلاً من ذلك، انقلبت الجاذبية للحظة، وسقطت
السّماء نحو الأرض، ثمّ توقفت في منتصف
الطّريق، كلوح زجاجيّ معلق فوق رؤوسهم.
ومن خلف الزجاج السّماويّ ظهرت مدن أخرى،
ليست مدينتهم.
عواالمٌ كاملةٌ تنهار في صمت، كلٌّ منها يحمل نسخةً
مختلفة منهم.
رأوا نبال في عالمٍ آخر يسقط وحده، ومهاد
يحترق بلا توقف.
رأوا أثير يقف قائداً لجيوش الظلّ، وزرام يختار
العزلة حتّى يختفي.
همس زرام:
_ نحن لسنا مركز المعركة، نحن تكرارها.
انفجر الضوء الأسود فجأةً، وتحول إلى كيان لا
شكل له، يتغيّر كلّ لحظة، أكبر من أن يُرى كاملاً.
وحين تكلم، اهتزّ الهواء من حولهم:
_ أنتم خللٌ في التوازن، وجودكم يسمح بالاختيار،
والاختيار يولد الفوضى.

اندفعت آلاف الكيانات من الشقوق، ليس نحو
المدينة هذه المرّة، بل نحو السّماء نفسها، كأنّها
تحاول إسقاط الحدود بين العوالم.
رفع مهّاد يده، واشتعلت شعله في صدره، لكنّها لم
تكن حمراء هذه المرّة، بل بيضاء حارقة، فقال:
_ إن كان الاختيار فوضى، فسنبصع من الفوضى
قانونًا.

توهج اللّون المجهول بين أيديهم مجدّدًا، لكنّه كان
أكثر اضطرابًا، كقلب لا يعرف إن كان يريد الحياة أم
الانفجار.

اقترب الكيان الأعظم منهم، حتّى شعرت المدينة
بأن ظلّه يغطي تاريخها كله.
قال أثير:

_ إن دمرناه، قد تنهار العوالم الأخرى.

قال نبال:

_ وإن لم نفعل، ستنهار جميعها.

توقف الزمن لثانية طويلة.

سكنت الرياح، تجمّدت الكيانات في الهواء،

ثم ظهر شقٌّ جديد... ليس في السماء، بل في
صدورهم.

شقٌّ مضيء، يمتدُّ إلى ما لا نهاية، يتصل بشيءٍ
أعمق من كلِّ ما واجهوه.

وقال الصَّوت الأعظم للمرَّة الأخيرة قبل أن يهجم:
_ لن تحاربوا جيشًا... ستحاربون القانون نفسه.
اندفعت السَّماء بكاملها نحوهم، لكنَّهم لم يتحرَّكوا،
لم يرفعوا أيديهم، لم يصرخوا، لم يهاجموا، بل تقدَّم
نيال خطوةً واحدةً إلى الأمام، والشَّقُّ في صدره
يثسع حتى صار كنافذةٍ تُطلُّ على فراغٍ لا يخضع
لقانون.

صرخ الصَّوت الأعظم: لا تفتحوا ما لا يُفتح!!
لكن أثير أغلق عينيه، وترك كلَّ احتمالاته تسقط
عنه، حتى لم يبقَ منه إلا قراراً صافٍ.
قال بهدوء: القانون ليس الحقيقة... بل عادةٌ قديمة.
ارتجف الوجود، امتدَّ خيظٌ من الضوء الأبيض من
صدر مهاد، وخيظٌ أسود كثيف من زرام،
وتقاطع الاثنان داخل الشَّقِّ المفتوح في صدر نِيال.
لم يكن تصادمًا... بل امتزاجاً خطيرًا.

توقف النبض الكوني، توقفت العوالم التي خلف
الزجاج السماوي، حتى الكيان الأعظم تجمد
كأنه لم يُخلق ليشهد ما يحدث الآن، ثم حدث
شيئاً لم يكن مكتوباً، انكسر الصوت، ليس
الصوت الذي يتكلم... بل الصوت الذي يُصدر
القوانين.

سمعوا شقاً عميقاً، كأن كتاباً هائلاً انقسم
نصفين، انطفأت العلامات في السماء، وسقطت
الرموز التي كانت تتحكم بالجابية، بالزمن،
بالحدود بين الممكن والمستحيل.
ارتفعت المدينة عن الأرض لحظة ثم اختفت
الأرض نفسها.

لم يعودوا واقفين في عالم،
بل في مساحةٍ خام، بيضاء،
غير مكتوبة، قال المعلم وصوته لم يعد أعلى
منهم: أنتم... ماذا فعلتم؟
أجاب زرام وهو ينظر إلى يديه:
أزلنا القاعدة.

لكن إزالة القاعدة لم تجلب السلام.

بدأت الألوان تتساقط من الوجود، الأصفر
أصبح رمادياً، الأزرق تبخر، والظلال لم تعد
تملك جهةً لتسقط فيها.

تقدّم الكيان الأعظم ببطء،

لكنه لم يعد عدوًّا، كان يتفكك.

قال بصوتٍ متكسر: إن لم يوجد قانون... لن
يوجد اختيار.

نظر الأربعة إلى بعضهم.

أدركوا فجأةً أن كسر القانون لا يعني الحرية،
بل الفراغ.

بدأت وجوههم تتلاشى عند الحواف، كأنهم لم
يُحدّدوا بعد.

خفق النبض مجدداً لكنه هذه المرة لم يكن من
الكون، بل منهم وحدهم.
ضعيفاً.

غير مستقرّ....

قابلاً للانطفاء.

ظهر أمامهم شيء جديد... ليس ظلاً، ولا نوراً،
ولا قانوناً.

كان نقطة صغيرة معلقة في الفراغ، تحوي احتمال كل شيء.

قال الصوت الذي لم يعرفوا مصدره: إن أردتم كونًا جديدًا...

فاكتبوه.

بدأت النقطة تتمدد.

الفراغ ينتظر، العوالم السابقة لم تعد موجودة.

الكيان الأعظم اختفى تمامًا.

المعلم لم يعد يرى، وقف الأربعة أمام مساحة بلا

حدود، لا سماء فيها، ولا أرض.. ولا زمن، وفجأة

انقسموا. ليس جسديًا...

بل في الرؤية.

كل واحد رأى كونًا مختلفًا يمكن أن يولد.

ومع أول فكرة خطرت في ذهن أحدهم، بدأ الفراغ

يتشكل.

لكن في اللحظة نفسها، ظهرت تشققات داخل

النقطة الصغيرة،

كأن شيئًا آخر يحاول أن يكتب معهم، وتردد صدى

بعيد: القانون لا يُكسر... بل يتغير صاحبه،

وخفق النبض مرّة واحدة.

ثم توقّف كلّ شيء قبل أن تتكوّن أوّل نجمة.

ارتجف الفضاء حولهم، ولم يكن الهدوء الذي

أعقب الانفجار إلّا وهماً مؤقتاً؛ إذ انبعث من

صدورهم وهجٌ متشابكٌ يضخ الحياة في

المدينة كلّها، لكنّه كان هذه المرّة أكثر اضطراباً،

كما لو أنّه يعكس صراعهم الداخليّ.

فجأةً، انشقت السماء مرّةً أخرى، وبرز شقٌّ من

نورٍ ورديٍّ خافت، يحمل معه نسيماً دافئاً يلتف

حول الأرواح، ومعه ظهرت فتاة ذات عيونٍ

كالسّماء قبل الفجر، وشعر ينساب كسيلٍ من

الظلال المضيئة، دخلت بخفّةٍ لكنّها أثرت كلّ

شيءٍ حولها، قالت بصوتٍ عالٍ لكن رقيق: لقد

ظننت أنّكم وحدكم من يختبرون الحقيقة لكن

القلب لا يتحمّل العزلة.

ارتجف النبض في صدور الأربعة، ووجد أثيرٌ

نفسه يتقدّم بخطواتٍ غير محسوبة، وكأنّ

شيئاً داخله اجتاحه، ثمّ نظر إلى مهاد، ونيال،

وزرام، وابتسمت له العيون الجديدة،

شعورٌ لم يعرفه من قبل، خوفٌ وحنانٌ وشغفٌ
يتشابك مع القوة.

مدّت الفتاة يدها، والتقت يد أثير، وفي لحظة
اتصالٍ واحد، انفجرت طاقةٌ جديدة، لونٌ لم
يُسمّ بعد، مزيجٌ من الذهب والوردي والأسود،
يعكس وحدة الحبّ والقوة والقرار.

قال نبال بصوتٍ صارم لكنه يحمل رهبةً: ليس
الوقت للتشّتت، كل شيء يعتمد على توازننا،
ابتسمت الفتاة ونظرت إلى زرام: ولستم
وحدكم، القلب يعرف طريقه دائماً.

اندفعت الكيانات من الشقوق، لكن هذه المرة لم
تكن موجهة لتدمير، بل لاختبار الاتصال، كل
واحدٍ من الأربعة واجه ظلّه الخاص، ولكن الظلّ
الآن لم يكن مجرد خوفٍ أو شك، بل انعكاساً
لحبّه، لامكانيّاته في العطاء والولاء.

صرخ الصّوت من كل مكان: ان لم تختاروا من
تمسكونه، سأختاره أنا.

تقدّم أثير، والتقطت يد الفتاة يده بقوة، لتتصل
الأيادي الأربعة مرةً أخرى،

ومعها يبدأ نبضاً واحداً يخرج من داخلهم
جميعاً، ممتداً إلى السماء، ثم إلى المدينة، ثم
إلى كل ما لم يُولد بعد.

قالت الفتاة وهي تحدق فيهم بعمق: الحب
ليس ضعفاً... بل قوة تفتح كل الأبواب التي
لا يستطيع الثور وحده فتحها.

توهج الضوء في لحظة صمتٍ مطلق، ثم
انفجرت المدينة بألوانٍ متشابكة، ولم يعد
الظل الأعظم فوقهم فقط، بل أصبح شبه
حارسٍ لحضورهم المتجدد، يحميهم من
الداخل والخارج.

ارتفعوا عن الأرض قليلاً، والسماء تشققت
على طبقاتٍ متعددة، وأدرك الأربعة أنهم لم
يكونوا مجرد مقاتلين، بل أحماء وقادة ورواد
في عالمٍ لا يعرف القوانين بعد، وأن
وجودهم المشترك مع الفتاة الجديدة قد
خلق قانوناً جديداً، قانوناً من الحب، التوازن،
والقرار المطلق.

لكن الحق... لا يعني النجاة.

خطوتهم الثالثة لم تكن أعلى فقط، بل أعمق.
مع كل درجة يصعدونها، كانت الصخور تنبض كقلب
قديم، وكأنّ الجبل نفسه يستيقظ على وقع
اعترافهم.

أثير توقّف فجأة.

وضع يده على الصخر، وأغمض عينيه.

— شيء ما يتغيّر... ليس حولنا، فينا.

لم تكن النار تعود كما كانت، لم تعد تحرق أطرافهم،

بل تسري في عروقهم بهدوءٍ يشبه العهد.

فجأة، انشقت السماء فوق القمة، وظهر ظلّ هائل، بلا

ملامح واضحة، إلاّ عيين... لا تنظران إليهم، بل من

خلالهم.

— تظنّون أنّ الاعتراف يطهركم؟

اهتزّ الهواء مع الصوت.

زرام تقدّم نصف خطوة، ثمّ تردّد، لكنّه لم يتراجع.

— لا.

الاعتراف لا يطهرنا، يجعلنا مسؤولين!

ساد صمتٌ ثقيل.

الظّل تحرّك، فانزلقت من تحته كائناتٌ من
دخانٍ متكاثف،
أجسادها غير مكتملة، كأنّها أفكارٌ لم تُحسم.
همس أثير:

– هذه ليست شياطين.

مهاد قبض على جمرةٍ تشكّلت في كفه:

– إذا ما هي؟

ردّ نِيال، وعيناه مثبتتان على أقرب ظلّ:

– احتمالاتنا... لو اخترنا غير ما اخترنا.

تقدّم أوّل كائن، كان يشبه نِيال... إلّا أنّ عينيه

فارغتان، وابتسامته باردة.

– كان يمكنك أن تكون قائدًا أعظم، لو لم

تنتظرهم.

الجمرة في يد مهاد اهتزّت، وظهر آخر يشبهه،

لكنّ ناره كانت سوداء، كثيفة، لا نور فيها.

– كان يمكنك أن تحكم النّار... لا أن تشاركها.

وزرام رأى نسخته، واقفةً وحدها على قمة، لا

أحد حولها، ولا ألم في عينيه.

– الوحدة أسهل... لا خيبة فيها.

تجمّد الهواء، وأدركوا أنّ المعركة ليست مع ظلّ
واحدٍ، بل مع نسخٍ منهم... لم تختّر الرّحمة.
أثير تقدّم، صوته ثابتٌ رغم ارتجاف أنفاسه:
– نحن لا نقاتلكم لأنّكم شرٌّ، نقاتلكم لأنّكم جزءٌ
منا... ولأنّنا اخترنا غيركم.

عندها فقط... اشتعلت النّار من جديد، لكن هذه
المرة، لم تكن حمراء، ولا صفراء... كانت بيضاء.
وفي قلب الجبل، ارتفع صوتٌ أقدم من اللّعة
نفسها:
_ من يعرف ظلّه... لا يُهزم به.

واندفعوا ليس ليقتلوا، بل ليحسموا أيّ نسخةٍ منهم
ستبقى.

اندفعوا... لكنّ الاندفاع لم يكن صراخًا ولا فوضى،
بل قرارًا.

أول اصطدام لم يُحدث صوتًا، بل ذكرى.
حين اصطدم نيال بنسخته، لم تتشابك الأيدي،
تشابكت اللّحظات.

رأى نفسه واقفًا فوق مدينةٍ محترقة، الجماهير
تهتف باسمه، والعرش خلفه أعلى من الجبل.
- كان بإمكانك إنقاذهم... لو ضحيتَ ببعض،
همست النسخة.

ارتجفت عروق النار في صدره.
- بل كان بإمكانني أن أخسر نفسي، أجاوب بهدوءٍ
لم يعرف أنه يملكه.
امتدّت يده، لا ليخنق، بل ليضع كفه فوق صدر
ظله.

اشتعل الضوء الأبيض بينهما، وصرخةٌ بلا ألم
تمزقت في الهواء.
اختفت النسخة... لكن أثرها بقي، ندبةٌ غير مرئية،
تذكره أنّ الطريق الأقصر ليس دائمًا الأصبوب.
في الجهة الأخرى، كان مهاد يواجه سواده، نسخته
لم تتكلم، كانت تبتسم فقط.
وفجأةً، انطفأت الجمرّة في يده، بردٌ زحف في
أطرافه.

- أنت لا تملك النار، قال الظلُّ أخيرًا

– النَّار تملكك.

للحظة... كاد يصدّق.

تذكر كل مرة فقد فيها السّيطرة، كل مرة
اشتعل غضبه قبل وعيه، لكنّه لم يقاوم الظّل.
اقترب.. فتح ذراعيه.

– نعم. أملك نارًا تؤذيني أحيانًا، لكنني
أتعلمها... كل يوم.

عانق ظلّه، لم يحترق.. بل انصهر!
النّار السوداء تشققت، وتحوّلت إلى خيوط
ضوءٍ رفيعة، دخلت صدره.
سقط مهّاد على ركبتيه،
لكنّ النّار في عينيه صارت أصفى.
أما زرام... فلم يقاتل.
نسخته كانت واقفةً، صامتة، قويّة، لا خوف
فيها، لا تردّد.

– الوحدة تحميك، قالت النّسخة.

– لا أحد يخذلك إن لم تقترب.

ارتجف شيء عميق فيه، تذكر أول مرّة قرّر ألا
بحتاج أحدًا.

أول مرة أقنع نفسه أن الاعتماد ضعف.

اقترب من ظلّه، رفع يده وقال:

– ربّما يؤذيني القرب، لكنّخ يبقيني حيًّا.

أدار ظهره لنسخته، وفي اللحظة التي اختار فيها أن ينشي نحو الآخرين، تفتت الظلّ كرمادٍ بلا جذور

الجبل اهتزّ، السماء انغلقت ببطء، والعينان

العملاقتان تلاشتا،

لكنّ الصوت بقي:

– اللعنة لم تكن في النار، ولا في القمة.. كانت في

خوفكم من أنفسكم.

ساد صمتٌ مختلف هذه المرة، ليس صمت الترقب،

بل صمت ما بعد الاعتراف.

نظر الأربعة إلى بعضهم، لا أحد خرج بلا أثر، لكنّ

أحدًا لم يخرج مكسورًا.

في قلب القمة، انشق الحجر ببطء، وكشف عن

شيءٍ لم يتوقعوه.

لم يكن سيفًا، ولا تاجًا، ولا نارًا أعظم... كان مرآة،

سطحها صافٍ، لكنّها لا تعكس الوجوه... بل

الخيارات القادمة.

اقترب أثير أولًا.. رأى طريقين.

أحدهما يعود بهم إلى العالم كما كان، والآخر لا

نهاية له، يمتد إلى أراضٍ لم تُرسم بعد.

ابتسم ابتسامَةً خفيفة.

– الجبل لم يمنحنا القوّة، منحنا الاحتمال.

امتدّت أيديهم نحو المرآة، لكن قبل أن يلمسوها،

اهتزّت الأرض مرّةً أخيرة، وتشقق الصّوء

الأبيض في السّماء، كأنّ شيئًا أعظم من الجبل

استيقظ.

وللمرّة الأولى، لم يكن في الصوت حكمٌ...

بل تحذير:

– أنتم لم تكسروا اللعنة، أنتم غيرتم شكلها.

ثمّ انطفأ كلُّ شيء، وبقيت المرآة وحدها، تنتظر

القرار

وقف نبال أمام المرآة، المرآة لم تكن تعكس

وجهه، بل كانت بلونين يتصارعان بالداخل،

لونين هما: الأصفر الهادئ والأحمر القاني، بدأ

يتسرّب كالحبر من أطراف الزجاج،

التفت نبال لرفاقه.

مهّاد يلمس صدره حيث انصهر ظلّه، وزرام
تنظر لخلفها وكأنّها تودّع شيئاً ما، وأثير كان
صمته ثقيل، أثقل من صوتِ الجبل، همس
نيال: نحن لم نكسر اللعنة، نحن فقط غيرنا
القواعد لها.

فجأة، انطفأ الضوء الأبيض وزال تماماً، وفي
وسط الظلام سمعوا ضحكة بعيدة، لم تكن هذه
الضحكة غريبة عنهم،

أجل هي ضحكة ملكور، نظر نيال إلى ميسال
وسألها: أين قين؟

لم تجبه و لم يجبه أحد، لكن المرأة بدأت
تتشقق ببطء

وبدا الهواء يشتد ويخرج من شقوق المرأة،
فتراجع نيال خطوة وهو يشد قبضته وقال:
يجب أن نختار حالياً قبل أن تختارنا المرأة
فإما أن ندخل هذه المرة بكامل إرادتنا، أو
نتظر المرأة لتختار مصيرنا، تختار لنا مصيراً لا
نريده.

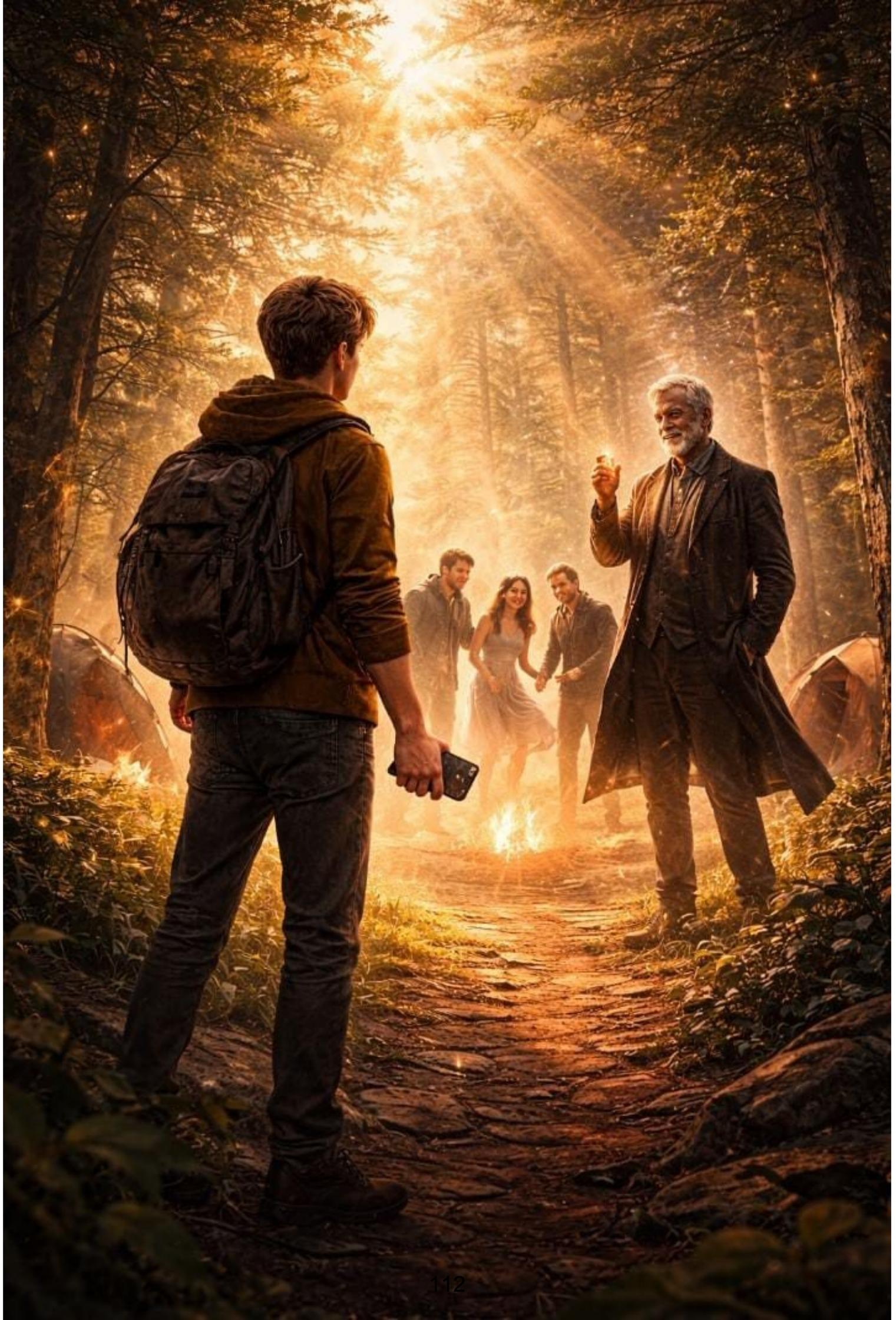
وسط هذا التوتر، انطفأ الضوء بالكامل، بقي
بريقٌ أحمرٌ خافت ينبعثُ هذا البريق من
الشقوق ينتظرُ أولَ يدٍ تقتربُ وتلمسهُ.

الباب السابع

الكتاب

جلنار العبد لله فاطمة صديق

إسلام فندي



في جوٍّ خريفيٍّ طغى عليه
اللون الأصفر القادم من الرياح
الضّره المحمّلة بحبيباتٍ رمليةٍ
صفراء، وتلك الحبيبات تداعب وجه نبال
المنهك المليء بتجاعيدٍ لا يمكن فكّ شيفرتها
إلا بيد ميسال، تلك الفتاة التي مدّتهم
بابتسامةٍ أبديةٍ الظهور، وبطاقةٍ قراريةٍ لا
ترى بالأعين، بل تقرأ بقشعريرة الرّوح التي
تهيمن على كلّ حاسةٍ من حواس الجسد،
وهذا يجعلها بسهولةٍ معرفة ما يجول في
نفسه.

كان نبال يقف عند حافة المصير، والخيارات
تزمّ عيونه لشدة قوّة أشعتها المصيرية التي
تحوي بين خيوطها تفكيراً عميقاً يحلّق
بالعقل ببساطِ الحيرة، وهو يسير الآن بخطى
غير متوازنة يتيم الصّواب وسط أعماق
الخيار!

وفي لحظة تفكيرٍ تنتقلها رياح الحيرة من
تلايف عقلٍ واعٍ إلى تلايف عقلٍ حذر،

لمع بريق مصفر أمامه، دفعه خطوتان إلى
الخلف، خطوتان كانتا كفيلتان بإسقاطه في
هوه لا مخرج منها، اقترب اللّمعان أكثر!
واشتدّ بريقه الضّعف ليرى أمامه فتاة فاتنة
المظهر، قوامها ممشوق، وعيناها عميقتان ثربك
الحواس بنظرة واحدة منها، اقتربت يدها التي
تشعّ بحنانٍ ناعم وبثقةٍ واسعة المدى، ممّا جعله
لا يدرك ماذا يحدث!

وهناك، وتحديدًا على يمينها
يقف شخصاً لا تظهر ملامحه
كاملة، بل جزءاً منها، كان يملك بين ابتساماته
المتقطعة سرّاً لا يباح به لأحد، ربّما هكذا
صرّحت تعليمات تلك الفاتنة!
أوقف ذلك الضّجيج صوت غليظ خرج من
داخل الجبل! كان يحتاج إلى أذانٍ صمّاء
لتسمعه، وليس لأذانٍ صاغية! يقول: هيا قدّم
يدك على طبقٍ من ثقةٍ لتزول الحيرة وتتوهج
الأنوار التي انطفأت بالكامل بسبب توترك!

وبعد سماعه لهذا الصوت، واقترابه خطوة من
تلك اليد، اجتاحه شعورٌ غريب سيطر على كيانه
وجعله يمدّ يده مُمسكاً باليد الأخرى بدون أيّ
إدراك، وفور ذلك ارتعش جسده رعشةً من الشُّرود
سرت في أجواف جسده مستوطنة بإحداها.
فجأة أصبح البريق يضمحلُّ شيئاً فشيئاً، ممّا
جعل ملامح الفتاة تظهر بشكلٍ أوضح من قبل،
ممّا دعى نِيال إلى التَّحديق أكثر فيها، ومع كلِّ
صفة جماليّة بارزة تقتنيها، كان يدونها على
سطور الإعجاب بحبرِ الابتهاال، ونبضات قلبه
تتسابق مع نظراته لها، وكأنهم في سباقٍ دائم لا
يُعلن انتهائه إلّا حين تلجم الدَّقائِق بتعويذاتٍ
تحرق الشكَّ.

وبعد ارتزام والتصاق الأيدي فوق بعضها، بدأ
بالسير على الأقدام نحو وُجهةٍ غير معلومة، عند
نِيال الذي ما يزال يحدّق ويدون كآلة كاتبة،
يقتصر عملها على تنفيذ التّعليمات التي تُطرح
عليها فقط، حتى وصلا إلى أمام باب كبير لقصرٍ
بُنِيَ بدقّة هائلة وسط تلك الغابة،

ويمتدّ من إحدى نوافذه شعاعاً رفيعاً بالكادِ
يُرى، يصلُ امتداده إلى قمة الجبل الذي كانا
عليه، وقد امتزج فيه لونٌ أحمر ذات درجة
لونية فذة، مع القليل من اللون الأصفر الباهت،
حرّكت تلك الفتاة رأسها وأومات بحركاتٍ لا
تفهم بسهولة، وسرعان ما فتح الباب
مُخرجاً صوتاً مزعجاً يخترُ في
طبلة الأذن ثاقباً إياها.

وفي أثناء سيرهم نحو هذا
القصر تكلم نبال قائلاً: من
أنتم؟ أيمكنني التّعرف عليكم؟
أجابته الفتاة بنبرةٍ سيطرت
عليها الدهشة وقالت:

أيعقل هذا ألم تعرفنا بعد؟
الاستغراب كبّل لسان نبال
بقيود الواقع الحديدية!
ومنعته من التّكلم وحتى
من التلّعثم!

وبعد تشبّت وشروود، وصهت وضجيج،

وصلا القصر

وتحديداً إلى الغرفة التي

يخرج منها ذلك الثور.....

دخل نيال الغرفة بخطواتٍ مترددة، والفتاة ما تزال

تمسك بيده، غير أن دفء كفها بدأ يبهت شيئاً

فشيئاً، كأن وجودها مرتبطٌ بالثور المُنبعث من قلب

المكان.

كانت الغرفة دائرية الشكل، جدرانها ملساء كأنها

منحوتة من حجرٍ حي، وفي منتصفها ارتفع عمودٌ

بلوريّ شفاف، ينبض بضوءٍ ذهبيّ يمتزج بأحمر

خافت، تماماً كاللون الذي اخترق النافذة قبل قليل.

لكن الضوء لم يكن ساكناً... كان يشبه قلباً يخفق.

تقدّم نيال خطوةً، فاشتدّ النبض.

همس الصوت ذاته الذي سمعه عند الجبل، لكنه الآن

أقرب، أعمق، وأوضح:

– اقترب... لقد طال انتظاري.

تجمّد مكانه.

نظر إلى الفتاة، فابتسمت ابتسامةً حزينة، وقالت

بصوتٍ لم يعد بشرياً تماماً:

– أنا لستُ سوى أثرٍ... ظلُّ لروحٍ حُبست منذ زمن.

أنا ما تبقى من الخير حين انطفأ.
اتسعت عينا نيال.

– إذا... أنتِ روح الخير؟
أجابت بهدوء:

– جزءٌ منها، أمّا القلب الحقيقي... فهو هناك.
وأشارت إلى البلّورة النابضة.

في تلك اللحظة، تحرّك الظلُّ الواقف عن يمينها.
لم يعد نصف ملامح، بل صار يشبه نيال حدّ
التطابق.

نفس العينين، نفس الوقفة، لكن بنظرةٍ خاليةٍ
من التردّد.

قال الظلُّ بصوتٍ يشبه صوته تمامًا:

– لا تستمع إليها، تحريرها يعني أن تفقد ما
استيقظ فيك.. قوّتك، نارك، وقيادتك.

شعر نيال بأنّ الأرض تميد تحت قدميه.

– ماذا يعني هذا؟

أجاب الظلُّ وهو يقترب: 118

– إن حرّرتها، ستعود روح الخير، لكن نارك ستخبو،
ستعود بشرًا عاديًا، وسيقود غيرك المعركة.
ساد الصمت.

كان يسمع نبض البلّورة، ونبض قلبه.
اقتربت الفتاة خطوةً أخرى، ووضعت يدها على
صدره:

– الخير لا يحتاج الأقوى، بل الأصدق... لكن القرار
لك.

اهتزّت الغرفة فجأة، وتشقّق الضوء في البلّورة،
كأنّ الوقت ينفد.

عاد الصوت العميق يتردد:

– اختر... إما أن تحرّر الرّوح وتفقد ما ظننته
قوّتك، أو تحتفظ بها... وتقاتل بنارٍ قد تلتهمك يومًا.
امتدّت يد الظلّ نحو البلّورة، وامتدّت يد الفتاة
نحو نيال.

واللحظة بينهما... كانت أضيق من نفس.

رفع نيال يده، لكنّه لم يحسم اتجاهها بعد، وانطفأ
كلُّ شيء!

وانطفأ كلُّ شيء، إلا نبضًا واحدًا
لم يكن بالغرفة، كان في داخله، لم تعد البلّورة تُرى،
ولا الفتاة، ولا الظلّ.

صار الظلام كثيفًا كأنه ماءٌ يغمر رئتيه، لكنّه لم
يختنق، بل سمع خفقاته

بطيئة... ثمّ أسرع... ثمّ استقرّت.

وحين فتح عينيه، لم يكن يمدّ يده إلى البلّورة، ولا
إلى الظلّ.

كانت يده على صدره، على قلبه.

وفهم!

القوّة التي استيقظت فيه لم تكن نارًا تخصّه، كانت
شظيّة من تلك الرّوح المحبوسة.

والنّار التي يخشاها الظلّ لم تكن لتخبو إن تحرّرت...
بل لتتطهّر.

ظهر الضّوء من جديد، لا من العمود البلّوريّ هذه
المرة، بل من الشقّ الذي بدأ يتّسع في صدره.

صرخ الظلّ:

_ ماذا تفعل؟!

همس نبال، وصوته ثابت: ١٢٥:

_ أعيذُ ما ليس لي.

ثم مدّ يده... لا إلى البلّورة مباشرة، بل إلى الظلّ.
وللمرّة الأولى، ارتبك ذلك الشّببيه، أمسك نِيال بكفّه
البارد، فلم يحترق.. بل شعر بثقلٍ هائل ينسحب
منه، كأنّ سنيئًا من الغضب، الخوف والطموح
الأعمى تُنتزع ببطء.

قال له:

_ أنت لست عدوي، أنت خوفي حين صدّقته.
وتقدّم خطوةً نحو البلّورة، والظلّ يتلاشى بين
أصابعه.

اقتربت الفتاة، وصوتها صار أكثر صفاءً:

_ إن فعلت... لن تعود كما كنت.

ابتسم وهمس:

_ لم أخلق لأبقى كما كنت.

ووضع كفّه على البلّورة،

لم تنفجر، لم تحترق الغرفة، لم تسقط الجدران.

بل حدث ما هو أبسط... وأعظم.

انبثق الضّوء من داخله هو، وامتزج بضوء البلّورة،

لا كمن يحزّر شيئًا خارجًا عنه، بل كمن يعترف
بأنّ الخير لم يكن أسيرًا هناك فقط، كان أسير
اختياره.

انشقت البلورة بهدوء، كزهرة تفتح قلبها بعد
شتاءٍ طويل.

وانحنى الضوء نحو نيال، ثم عبره كريحٍ دافئة.
شعر بالخفة،

لم تعد النار تشتعل في عروقه،
بل صار دفنًا هادئًا.

اختفى الظلّ، وتلاشت الفتاة...
لكنّها وقبل أن تتلاشى تمامًا، قالت:
_ لم تفقد قوّتك، لقد اخترت نوعها.
ثم سقط الصمت.

عندما استعاد وعيه، لم تكن الغرفة كما كانت،
لم يعد العمود قائمًا،

الجدران لم تعد دائريّة تمامًا.
واللون الذهبي لم يعد يخترق المكان.
لكنّ قلبه..

كان أهدأ من أيّ وقت مضى.
وسمع من بعيدٍ صوت معركةٍ لم تبدأ بعد.
خطا خطوةً نحو الباب الذي لم يكن موجودًا
سابقًا.

لم يشعر أنّه أضعف،
بل شعر أنّه لا يحتاج أن يكون الأقوى.
وحين خرج، كان الفجر قد بدأ.
لكن في الأفق، لم يكن الضوء وحده ينتظر، بل
كان هناك الآلاف، لم يعلم ماهي، نصفها بشر
وأخرى ظلال، كلما اقترب منها ابتعدت نحو
الأفق، وكأنّها تقوده إلى هوةٍ أخرى.
بدأ يقترب أكثر فأكثر بخطوات ثابتة، وقوةٍ لم
تخلق من قبل؛ حتى سمع صوتًا يضحُّ في كلِّ
مكان

— "أنت من غيرت نفسك، فلتتحمل عواقب
ذلك."

اختفى ذلك الصوت واختفت معه جميع
إيماءات نيال.

اقترب أكثر حتى وصل إلى طريقين،

في أفق الأول كانت تنتظر تلك المخلوقات، وفي الثاني كان يرى عالماً آخر لم يره من قبل. احتار في أمره، ربّما الأول طريقاً لنجاة الخير، لكن الثاني ماذا؟

هل هو كما أراه، أم أنه طريق إلى هاوية جديدة؟ بدأ يفكر، لكن شيء ما في داخله بدأ يحرضه، حسم الأمر بتذكّر كلام تلك الفتاة "لم تفقد قوّتك، لقد اخترت نوعها"

سار في الطريق الأول، لكن دون أن يعلم نهايته. في بدايته كان أصفر مخضر، وكأنه تلك الهوة التي صادفها، وحين اقترب من المنتصف بدأت تلك المخلوقات بالظهور والإيضاح أكثر أنها ليست بشر بل ظلال وأوهام، تأكّد حينها أنه اختار طريقاً لنجاة الخير.

كلّما اقترب خطوة، كثرت الظلال ودون إرادته بدأ يحاربها، يميناً ويساراً، فوق وتحت، وكان متقناً في قتاله دون أيّ أداة! كلّما قتل مجموعة، ظهرت أخرى، وتلاشت سابقاتها، لا دماء ولا أيّ أثر لها

صوتٌ جديدٌ بدأ يتردّد، لكنّه أصفى وأدفاً من
الذي سمعته:

_ هيا، لقد انتظرتك لسنوات.

قاطع ذلك الصوت، رنينُ الهاتف المحمول

الهاتف؟ ما الذي يفعله بأرض الهوة؟!

مع تزايد صوت الرنين، زاد تعرّق نِيال، واستقيظ

أخيراً!!

لم يكن حلماً وليس بكابوس، ما الذي كان

يعيشه؟!

لم يفهم نِيال ما الذي حدث لوهلة

تصاعد الرنين حتى أجاب

_ مرحباً؟

أجابَه رزام:

_ أسرع! سوف نخرج الآن، الرحلة سوف تبدأ.

وفي وسط الغابة، كانت مجموعة من الأصدقاء

يضحكون بصوتٍ عالٍ، ضحكاتٌ صافيةٌ تعكس

السعادة، رحلةٌ جامعيّةٌ بعيدةٌ عن ضغط الدّراسة.

أما نِيال كان على غير عاداته، هادئاً!

وفي وسط التجمّع، ظهر رجلٌ له وقارٌ مهيب
قاطع ضحكاتهم بكلامه:
_ مرحبًا.. أنا المعلّم آسر، أريد أن أصطحبكم إلى
رحلة الهوة.

تجمّدت عينا نيال، ولم ينطق بحرفٍ واحدٍ حتّى،
كما اتّجهت نظراته إلى ذلك الخاتمِ الأصفرِ الذي
بيد المعلّم آسر، لا لم يكن حلمًا!

النهاية.

اقترب الكيان الأعظم
منهم، حتى شعرت
المدينة بأن ظله يغطي
تاريخها كله